تفسير

سورة يس

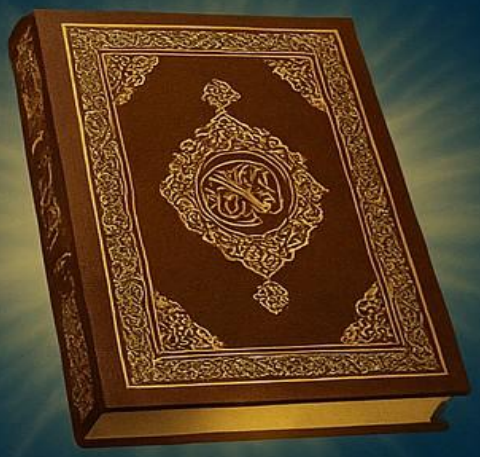

إعداد

د. حسين عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

من الوحي الإلهي

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾
أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 77-83]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

فإنّ كتاب الله سبحانه وتعالى هو النور المبين، والذكر الحكيم، من تمسّك به، لا يضل ولا يشقى.

ومن أجلّ سور القرآن، وأعظمها أثرًا في النفوس، وأبلغها بيانًا سورة **"يس"**، لما فيها من جمع مقاصده: من إثبات الرسالة، وتقرير التوحيد، وذكر البعث والجزاء، والحديث عن أحوال الأمم، ومصير الطائعين والعاصين.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم أعد بأسلوب سهل يسير ، ليكون في متناول الشباب وطلبة العلم، وقد حرصت فيه على عرض المعاني ، واستنباط العبر، وبيان المقاصد التربوية والعقدية التي تشتمل عليها الآيات.

وقد اخترت هذا الأسلوب الوسيط، لما رأيت من حاجة الناس، ولا سيما طلاب العلم ، إلى ما يجمع بين الفهم السهل والدلالة العميقة، وبين اللغة الميسورة والمرجعية الموثوقة.

أسال الله تعالى أن ينفع به جامعه وناشره والدال عليه في الدارين وأن يكون القرآن حجة لنا لا علينا، وأن يجعله الله صدقة جارية، نافعة لي ولوالديّ، ولكل من ساهم في نشر هذا العمل أو الاستفادة منه.

فاللهمَّ لك الحمد على ما وفَّقتَ وأعنتَ ، استزادةً لفضلك ، واستدراراً لرضاك ، وقياماً بحقّ شكرك ، حمداً يليق بجلال وجهِك وعظيم سلطانك ، فلك الحمد في الأولى والآخرة .

فتقبل اللهمّ منّي صالح ما أعطيتني ، واجعله خالصاً لوجهك العظيم ، وتجاوز عن خطأي وزللي إنّك سميع الدعاء.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد ، النبيّ الأمّيّ الطاهر الزكيّ ، وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

وكتبه / أبو معاذ حسين عامر

في 13 فبراير 2014

لافال ـ كندا

سورة يس

وهي مكية

وآياتها 83 آية

التمهيد ويحتوي على

- سبب التسمية
- فضائل السورة .
- بين يدي السورة

تفسير سورة يس

التمهيد

سبب تسميتها بسورة يس

سميت سورة يس لافتتاحها بهذه الأحرف الهجائية: ياء، وسين.

فضل السورة :

ذكر المفسرون أحاديث كثيرة وآثاراً في فضل هذه السورة، ولكن أكثر ما ذكروه ضعيف السند أو موضوع ،– **وإنما أسوقه هنا للتنبيه عليه** ؛ فمنها:

1. **حديث: "إن لكل شيء قلبًا، وقلب القرآن يس، من قرأها فكأنما قرأ القرآن عشر مرات"** [1]
2. **حديث: "اقرؤوا على موتاكم يس"**[2]

---

[1] ضعيف. رواه الترمذي (حديث رقم 2887) وقال: "هذا حديث غريب"، وذكر أن في سنده هارون أبو محمد وهو شيخ مجهول

[2] رواه أحمد (19789) وأبو داود (3121) عن معقل بن يسار والحديث ضعيف ، ضعفه النووي في "الأذكار" ، وقال ابن حجر في " التلخيص" (104/2) : " أعله ابن القطان بالاضطراب وبالوقف وبجهالة حال روايه أبي عثمان وأبيه . ونقل ابن العربي عن الدارقطني أنه حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن ، ولا يصح في الباب حديث " انتهى وضعفه الألباني في "إرواء الغليل" (688)
وقد ذهب جمهور العلماء (منهم الحنفية والشافعية والحنابلة) إلى استحباب قراءة سورة يس عند المحتضر، واستدلوا على ذلك بهذا الحديث رغم ضعفه، وقد اختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .ففي "الاختيارات" (ص 91) :" والقراءة على الميت بعد موته بدعة ، بخلاف القراءة على المحتضر ، فإنها تستحب بياسين " انتهى.
قالوا : والسبب في استحباب قراءتها :أن هذه السورة مشتملة على التوحيد والمعاد، والبشرى بالجنة لمن مات على التوحيد، بقوله : (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي) فتستبشر الروح بذلك، فيسهل خروجها .
وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى كراهة قراءة سورة يس أو غيرها عند المحتضر ، لضعف الحديث الوارد في ذلك ، ولأنه ليس من عمل الناس .
وسئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : هل قراءة سورة (يس) عند المحتضر ثابتة في السنة أم لا ؟فأجاب : قراءة (يس) عند المحتضر سنة عند كثير من العلماء، لقوله صلى الله عليه وسلم : (اقرأوا على موتاكم يس) ، لكن هذا الحديث تكلم فيه بعضهم وضعفه ، فعند من صححه تكون قراءة هذه السورة سنة ، وعند من ضعفه لا تكون سنة . والله أعلم " انتهى .

3. **حديث: "من قرأ يس في ليلة أصبح مغفورًا له"** [3]

4. **حديث: "يس لما قرئت له."**[4]

5. **حديث " من دخل المقابر فقرأ سورة (يس)، خفف عنهم يومئذ، وكان له بعدد من فيها حسنات"** [5]

الخلاصة:

معظم الأحاديث الواردة في فضل سورة يس إما ضعيفة أو لا أصل لها، ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث صحيح يخص سورة يس بفضل معين .

لذا، يُستحب قراءة القرآن الكريم عمومًا، دون تخصيص سورة معينة بفضل لم يثبت.

هل صح أن سورة يس تقرأ لقضاء الحاجة؟

نقل الحافظ ابن كثير في تفسيره عن بعض أهل العلم: "أنَّ مِن خصائص هذه السورة أنها لا تُقرَأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى"

وهذا اجتهاد ليس عليه دليل صحيح، على أننا ننبه هنا إلى أن كثيرا ممن تقضى له الحاجات عند دعائه، أو قراءته لمثل ذلك، إنما تقضى له لأجل ما كان بقلبه من الاضطرار والفقر إلى ربه، وصدق اللجوء إليه، لأن المسلم إذا قام بعمل صالح ثم دعا الله متوسلا بهذا العمل كان أرجى في الإجابة ، سواء كان هذا العمل تلاوة قرآن أم صوم أم صدقة ...الخ.

فلا يعني هذا استجابة الدعاء لمكان بعينه أو سورة بعينها ، **وقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حول هذا المعنى فقال:** (سبب قضاء حاجة بعض هؤلاء الداعين الأدعية المحرمة أن الرجل منهم قد يكون مضطرا اضطرارا لو دعا الله بها مشرك عند وثن لاستجيب له، لصدق توجهه إلى الله، وإن كان تحري الدعاء عند

---

[3] رواه ابن حبان في صحيحه، وأبو يعلى، وقال عنه الشيخ الألباني: "ضعيف."

[4] قال السخاوي: "لا أصل له بهذا اللفظ"، وذكر القاضي زكريا أنه موضوع

[5] حديث موضوع انظر "الموضوعات" لابن الجوزي (313/2)، "الفوائد المجموعة" للشوكاني (942،979)

الوثن شركا، ولو استجيب له على يد المتوسل به، صاحب القبر أو غيره لاستغاثته، فإنه يعاقب على ذلك ويهوي في النار، إذا لم يعف الله عنه"...ثم يقول: " ومن هنا يغلط كثير من الناس؛ فإنهم يبلغهم أن بعض الأعيان من الصالحين عبدوا عبادة أو دعوا دعاء، ووجدوا أثر تلك العبادة وذلك الدعاء، فيجعلون ذلك دليلا على استحسان تلك العبادة والدعاء، ويجعلون ذلك العمل سُنّة، كأنه قد فعله نبي؛ وهذا غلط لما ذكرناه، خصوصا إذا كان ذلك العمل إنما كان أثره بصدق قام بقلب فاعله حين الفعل، ثم تفعله الأتباع صورة لا صدقا، فيُضَرون به؛ لأنه ليس العمل مشروعا فيكونَ لهم ثواب المتبعين، ولا قام بهم صدق ذلك الفاعل، الذي لعله بصدق الطلب وصحة القصد يكفر عن الفاعل "[6]

ما حكم قراءة سورة يس للرقية:

الرقية ليست من باب التوقيف، فتجوز بكل آيات القرآن، وبكل دعاء مباح، فقراءة سور من القرآن والرقية بها لا حرج فيها، فإن الرقية مشروعة في أصلها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وفعله، **ففي الصحيحين عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها.**

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ! كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَ: (اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ)[7]

وجاء في صحيح ابن حبان عن عائشة -رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها وامرأة تعالجها أو ترقيها فقال: عالجيها بكتاب الله . صححه الألباني "

---

[6] اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (2/698:700)

[7] رواه مسلم.(2200)

ويعوّل فيها على التجربة، لأنها من باب التداوي، فما ثبت بالتجربة أنه ينفع المريض جاز استعماله ما لم يكن فيه معصية أو ضرر.

قال ابن مفلح رحمه الله: "وكان الشيخ تقي الدين رحمه الله [يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية] يكتب على جبهة الراعف [الذي أصابه نزيف من الأنف]: **(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ"**

وقال أيضا: "قال صالح - ابن الإمام أحمد -: ربما اعتللت فيأخذ أبي قدحا فيه ماء فيقرأ عليه ويقول لي: اشرب منه، واغسل وجهك ويديك، ونقل عبد الله بن الإمام أحمد أنه رأى أباه يعوذ في الماء ويقرأ عليه ويشربه، ويصب على نفسه منه". [8]

وقال ابن القيم: قال الله تعالى: **(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)** [الإسراء:82] والصحيح: أن: من هاهنا، لبيان الجنس لا للتبعيض، وقال تعالى**: (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور) [يونس:57]**
فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدا. [9]

وأما تكرار السور ثلاثا أو سبعًا، وإعادة الرقية ثلاثة أيام أو أسبوع فكل هذا مبني على الخبرة والتجربة لأن أمور الرقى يباح ما جرب نفعه منها إن لم يكن فيه شرك.

وقد نقل الإمام القرطبي عن يحيى بن أبي كثير قوله: بلغني أن من قرأ سورة يس ليلًا لم يزل في فرح حتى يصبح ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي قال: وقد حدثني من جربها، ذكره الثعلبي وابن عطية، قال ابن عطية: ويصدق ذلك التجربة .اهـ. [10]

---

[8] "الآداب الشرعية.(2/442) "

[9] زاد المعاد في هدي خير العباد الجزء الرابع، صفحة 287، طبعة الرسالة

[10] الإمام القرطبي –في *الجامع لأحكام القرآن*، عند تفسير سورة يس.

بين يدي السورة

سورة (يس) تضمنت تقرير الأصول الثلاثة: الوحدانية، والرسالة، والبعث والحشر، بأقوى البراهين.

فجاءت فاتحتها ببيان الرسالة، بقوله سبحانه :**(إنك لمن المرسلين)** {يس:3). وجاءت خاتمتها ببيان الوحدانية والحشر؛ في قوله عز وجل :**(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء)** {يس:83) إشارة إلى التوحيد. وقوله تعالى :**(وإليه ترجعون)** {يس:83) إشارة إلى الحشر.

وقال ابن عاشور" :قامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه من إثبات الرسالة، والوحي، ومعجزة القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء، وإثبات القَدَر، وعلم الله، والحشر، والتوحيد، وشكر المنعم -وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرع الشريعة- وإثبات الجزاء على الخير والشر، مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب، فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى (قلب القرآن)؛ لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله، وإلى وتينها ينصب مجراها". (الوتين: عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه).[11]

وعلى الجملة يمكن ذكر مقاصد هذه السورة وفق التالي:

1. التحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة، وبالقَسَم بالقرآن؛ تنويهاً به، ووصفه بـالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام.
2. أَوْلَت السورة أهمية لبناء أسس العقيدة؛ فتعرضت لطبيعة الوحي، وصدق الرسالة منذ افتتاحها، ولقضية الألوهية والوحدانية، واستنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن، الذي جاء من أقصى المدينة ساعياً؛ ليحاج قومه في شأن المرسلين.

---

[11] انظر: التحرير والتنوير، سورة يس، الآية 1 –(5/23) دار سحنون / الدار التونسية للنشر(

3. تحقيق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وتفضيل الدين الذي جاء به في كتاب منزل من الله؛ لإبلاغ الأمة الغاية السامية، وهي استقامة أمورها في الدنيا، والفوز في الآخرة.
4. وصف إعراض أكثر مشركي قريش عن تلقي الإسلام، وتمثيل حالهم الشنيعة، وحرمانهم من الانتفاع بهدي الإسلام، وأن الذين اتبعوا دين الإسلام، هم أهل الخشية، وأن الإسلام هو الدين الموصوف بالصراط المستقيم.
5. ضرب المثل لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية، الذين شابه تكذيبهم الرسل تكذيب قريش، وكيف كان جزاء المعرضين من أهلها في الدنيا، وجزاء المتبعين في الآخرة. إضافة إلى ضرب المثل بالأعم، وهم القرون الذين كذبوا، فأهلكوا.
6. التذكير بأعظم حادثة حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام منذراً لهم، فهلك من كذب، ونجا من آمن.
7. ذكر جملة من الآيات الكونية التي بثها سبحانه في الكون، والامتنان على عباده بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات، وبيان دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية؛ إيقاظاً للعباد من غفلتهم، وإرشاداً لهم للافتكار والاعتبار.
8. وجهت السورة نداء الحسرة على العباد، الذين ما يفتؤون يكذبون كل رسول، ويستهزئون به، غير معتبرين بمصارع المكذبين، ولا متيقظين لآيات الله في الكون، وهي كثيرة.
9. ذكر دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان؛ للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وترقب الجزاء. والإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول عليه

الصلاة والسلام، واستعجال وعيد العذاب، والتحذير من حلوله بغتة حين يفوت التدارك.

10. بينت السورة أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان.

11. التذكير بما عهد الله إلى عباده مما أودعه في فِطَرهم من قابليات واستعدادات.

12. الاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان، والإرشاد إلى اتباع دعاة الخير.

13.نفت السورة أن يكون ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم شعر، ونفت عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلاً.

14. النعي على المشركين اتخاذهم آلهة من دون الله، يبتغون عندهم النصر، وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة.

15.تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن لا يحزنه قول الذين أشركوا، وأن له بالله أسوة، إذ خلقهم، فعطلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية، ولكنهم راجعون إليه، لا مفر لهم من ذلك.

16. القضية التي اشتد عليها التركيز في السورة، وترددت في مواضع كثيرة منها، هي قضية البعث والنشور؛ وذلك بغرض الاستدلال على تقريب البعث وإثباته، وتذكير العباد بالنشأة الأولى من نطفة؛ ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كتلك النشأة ولا غرابة.

****

الفصل الأول

حقائق الإيمان في مواجهة عتوّ الطغيان

قال تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝١٢﴾ [يس: 1-12]

الفصل الأول

حقائق الإيمان في مواجهة عتوّ الطغيان

تفسير قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس: 1]

جاء حديث ضعيف عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: **(أن له عند ربه عشرة أسماء من ضمنها طه ويس)** وهذا لا يصح عن النبي صلوات الله وسلامه عليه، ولم يصح أنها من أسمائه صلى الله عليه وسلم، في سنده وضاع وضعيف. [12]

ولكن الراجح فيها: أن **(يس)** ومثلها **(طه)**حرفان مقطعان من حروف اللغة العربية يتحدى الله عز وجل بهما الكفار، بأن يأتوا بكتاب مثل هذا الكتاب العزيز من جنس هذه الحروف التي يقرؤونها ، وما استطاع أحد من فحول بلغاء العرب وفصحائهم أن يأتي بمثل ذلك، ولن يقدروا أبداً أن يأتوا بمثل ذلك ، وغالباً إذا جاءت هذه الحروف يذكر الله عز وجل القرآن أو إشارة إلى القرآن بعدها إلا في مواضع يسيرة، فأي سورة فيها هذه الحروف المقطعة يشير بعدها إلى هذا القرآن، بياناً منه سبحانه أن هذا القرآن من جنس هذه الحروف، ولكن لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا أن يكون إنساناً مفترياً كذاباً .

والبعض احتج ايضا أن الخطاب بعد **(طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)** و**(يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين)** موجه للرسول صلى الله عليه وسلم فهذا يدل على أنها نداء للرسول باسمه ،وهذا غير صحيح لأننا لو جعلنا هذا الأمر قاعدة لكان من أسمائه **(المص)** ففي أول سورة الأعراف قال تعالى : **(المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)** [الأعراف : 1،2] فهنا الخطاب

---

[12] أما الوضاع فإسماعيل بن يحيى التميمي، قال أبو حاتم: يروي الموضوعات عن الثقات لا تحل الرواية عنه . وقال الدارقطني : كذاب متروك، وقال الأزدي: ركن من أركان الكذب لا تحل الرواية عنه. أما الضعيف فسيف بن وهب، قال الإمام أحمد: ضعيف الحديث، وقال يحيى: كان هالكا من الهالكين، وقال النسائي: ليس بثقة، ينظر: إتحاف السادة المتقين 7 \ 163، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين3 \ 1483. وينظر فيمن حكم على الحديث بأنه ضعيف أو موضوع لا يصح: الرياض الأنيقة 30 ، نسيم الرياض وشرح الشفا 1 \ 316، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين 3 \ 1482، 1483

موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ،ولم يقل أحد أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم (المص)

قال الإمام ابن القيم : وأما ما يذكره العوام أن يس وطه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم فغير صحيح ولا حسن ولا مرسل ولا أثر عن صاحب، وإنما هذه الحروف مثل: الم، وحم، والر، ونحوها. [13]

من هم آل ياسين؟

ويستشكل البعض قوله تعالى: (سلام على إل ياسين) [الصافات:130]. وفي القراءة الأخرى: (سلام على آل ياسين)[الصافات:130]

وللعلماء أقوالا في معنى الآية:

أحدها: أن المراد إلياس عليه السلام، والذي وردت تلك الآية في آخر قصته.

قال القرطبي: والمراد إلياس عليه السلام، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسم أعجمي. والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها.

والقول الثاني: أن المراد آله وهو داخل فيهم.

قال النحاس: فكأنه -والله أعلم- جعل اسمه إلياس وياسين، ثم سلم على آله، أي أهل دينه ومن كان على مذهبه، وعلم أنه إذا سلم على آله من أجله، فهو داخل في السلام.

والقول الثالث: -وهو أضعفها- أن المراد آل محمد صلى الله عليه وسلم.

جاء في تفسير القرطبي: قال السهيلي: قال بعض المتكلمين في معاني القرآن: آل ياسين آل محمد عليه السلام، ونزع إلى قول من قال في تفسير" يس" يا محمد. وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة: أحدها: أن سياقة الكلام في قصة إلياسين، يلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأن التسليم راجع عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل في تلك الآية الأخرى، مع ضعف ذلك

---

[13] تحفة المودود بأحكام المولود 116، 117

وأيضا فإن **"يس"** جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسما للنبي صلى الله عليه وسلم لقال: "يسن" بالضم، كما قال تعالى: (يوسف أيها الصديق) [يوسف: 46]. وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه، ف "إلياسين" هو إلياس المذكور، وعليه وقع التسليم.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: 2]

أقسم الله عز وجل بهذا القرآن الحكيم، والحكيم من أسماء الله عز وجل، ووصف بها كتابه سبحانه وتعالى، وهو كلام حكيم رصين، فيه الحكمة وفيه الحكم، وهو كلام محكم، أحكمه الله سبحانه وأتقنه، وأتانا بأحسن القصص فيه وأعظم الكلام وأعظم الموعظة وأعظم الشرائع.

إذاً: القرآن الحكيم: القرآن ذو الحكمة، والقرآن المحكم، والقرآن الحاكم، والقرآن الذي لا خلل فيه ولا زلل ولا خطأ، وما من كتاب إلا ويوجد فيه أخطاء مهما راجعه صاحبه، قال تعالى: **(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)** [النساء:82]، أي: فكل كتاب من عند غير الله لابد وأن يكون فيه الاختلاف، ولا بد وأن يكون فيه الخطأ، إلا كتاب الرب سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ [يس: 3]

المخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أقسم له سبحانه بكتابه الحكيم إنه لمن المرسلين، وإذا قال له ربه سبحانه: **"إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ "** كفى، ولكن يقسم له سبحانه لإزالة أي شك وريب في قلوب الناس.

قوله تعالى: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ [يس: 4]

الصراط: الطريق الذي يوصل بين شيئين والمعنى: إنك على طريق مستقيم من عند الله سبحانه.

والمعنى: إنك يا محمد! على طريق الرسل الذين كانوا من قبلك، فهؤلاء على طريق الله وأنت على طريقهم، والكل يدعو إلى الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴿٥﴾﴾ [يس: 5]

يذكر الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن العظيم منزل من عنده سبحانه، وتَنزِيلَ : مصدر نزل تنزيلاً، فالقرآن منزل جاء من عند الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: (الْعَزِيزِ)، العزة صفة من صفاته، والعزيز اسم من أسمائه سبحانه وتعالى. والله عزيز، أي: لا يمانع ولا يغالب سبحانه، إذا قضى أمراً فلا يرد قضاءه أحد، فهو العزيز القوي الذي لا يغالب، القاهر الذي لا يمانع، الذي إذا قضى شيئاً فلابد أن يكون على ما أراد أن يكون.

قوله تعالى: (الرَّحِيمِ): اسم من أسمائه، والرحمة صفة من صفاته سبحانه وتعالى ؛ فالرحيم: ذو الرحمة العظيمة البالغة، وقد ذكر سبحانه أن رحمته سبقت غضبه والرحمن والرحيم صيغتها مبالغة، والرحمن: ذو الرحمة العظيمة التي تعم الخلق جميعهم، والرحيم : ذو الرحمة العظيمة ؛ فالرحيم: يرحم خلقه سبحانه فيهديهم ويدلهم على الصواب، وينزل عليهم الكتاب، ويرسل إليهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهو بعباده رحمن رحيم.

قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴿٦﴾﴾ [يس: 6]

قوله تعالى: (لِتُنْذِرَ) أي: تخوفهم من عذاب الله سبحانه وتعالى، وتهددهم بما عند الله من عذاب على من يشرك به ومن يكذب رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى: (مَا أُنْذِرَ) (ما) نافية، يعني: ما جاء نذير لآبائهم.

وقوله تعالى: (فَهُمْ غَافِلُونَ) أي: غافلون عن عذاب الله سبحانه، لا يستجيبون للأنبياء ولا يهتمون بعذاب ربهم سبحانه وتعالى، فالله عز وجل أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم ليبشر المؤمنين، وينذر الكافرين.

إذن لم يأت العرب من أنفسهم نذير، ولم يأتهم رسول من عند الله سبحانه، وإنما كان الأنبياء من ذرية أخرى ليسوا من هؤلاء العرب، فهذا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ليس من العرب، إنما مولده في العراق عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ومن

أبناء إبراهيم إسحق وإسماعيل، وقد أخذ إبراهيم وإسماعيل وهو صغير وذهب به إلى مكة ووضعه هناك مع أمه هاجر، وتركه هنالك، وجاءت رفقة من جرهم كانوا عرباً، فتعلم منهم إسماعيل العربية وكان من أفضلهم فيها، فنافسهم فيها وغلبهم فكان إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام أبا هؤلاء العرب الذين جاءوا بعد ذلك، وكان أباً للنبي صلوات الله وسلامه عليه، فهو ابن الذبيح إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

ومن عهد إسماعيل إلى عهد نبينا صلى الله عليه وسلم، لم يكن هناك نبي من العرب، بل كل الأنبياء من ذرية إسحاق؛ لكن النبي الوحيد الذي جاء من العرب هو نبينا صلوات الله وسلامه عليه، فهو من ذرية إسماعيل، فلذلك قال الله سبحانه: **لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ** [يس:6] أي: ما جاءهم نبي منهم .

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٧﴾﴾ [يس: 7]

حق: بمعنى ثبت ووقع .

هذا تفصيل لحال القوم الذين أرسل محمد ﷺ لينذرهم، فهم قسمان:

قسم لم تنفع فيه النذارة، وقسم اتبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة.

وبين أن أكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب، وهم الذين عاندوا الحقّ ، وأصرّوا على الكفر، وماتوا عليه، وهذا إخبار منه سُبحانه بمآل أمورهم ، وخواتيم أحوالهم .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴿٨﴾﴾ [يس: 8]

(أَغْلَالًا) الأَغلال جَمع غُلّ (بضم العين): وهو ما تجمع به اليد إلى العنق للتعذيب ، أو ما يوضع في العنق .

(الْأَذْقَانِ) جمع ذَقَن ، وهو مجتمع اللحيين .

(فَهُمْ مُقْمَحُونَ) رافعون رءوسهم ، لا يستطيعون خفضها.

معنى جعل الأغلال في أعناق الكفار: [14]

من جمال القرآن في تعبيراته وبلاغته، احتماله للمعاني الكثيرة التي تكون كلها صحيحة، فيكون الاختلاف اختلاف تنوع، فالله سبحانه يقول: **"إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا "**[يس:8]، إما أن يكون يوم القيامة وهم يحاسبون، أو وهم في النار، أو وهم في الدنيا جعل في أعناقهم ذلك دليلاً على المنع والحجز عن شيء أرادوه، فكل هذه المعاني صحيحة.

والقيد: الرباط الذي يوثق به الإنسان، سواء كان من حديد أو من غيره.

والغل: السلسلة التي تجمع يدي الإنسان إلى عنقه، فتكون اليدان مربوطتين إلى العنق في سلسلة، والرأس مرفوع إلى فوق، والذل عليه فنظره أسفل، فهو مقمح ذليل لا يقدر أن يحرك رأسه، هذا حالهم يوم القيامة.

فالمعنى: أيديهم مغلولة تحت أذقانهم، مربوطة بسلاسل في أعناقهم.

وقوله: فَهُمْ مُقْمَحُونَ ، أي: أن الوضع ضيق عليه، فلا يقدر أن يوطئ رأسه فيستريح؛ لأن رأسه مرفوعاً، وعينيه ذليلتان تنظران إلى أسفل.

فالإقماح: رفع الرأس وغض البصر، ورفع الرأس هنا ليس من عزته؛ لأنه مجبر على ذلك.

وقيل : إن الآية حقيقة وليس فيها (استعارة) وإنما هذا تصوير لهم يوم القيامة (**إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ**)[سورة غافر آية 71].

---

[14] جاء في سبب نزول هذه الآية أن أبا جهل بن هشام ورجلين من بني مخزوم تواصوا فيما بينهم أنهم إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ويسجد عند الكعبة أن يأخذ أحدهم حجراً ويرضخ به رأسه صلى الله عليه وسلم، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ليصلي إذا بـأبي جهل لعنة الله عليه يأخذ حجراً ويجري إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبر بقسمه، فلما وصل فزع ورجع خاشعاً ذليلاً لعنة الله عليه وعلى أمثاله، إذ غلت يده إلى عنقه بالحجر الذي معه ورجع فزعاً إلى قومه ....هذه القصة وردت في بعض كتب التفسير مثل تفسير ابن كثير والطبري، لكنهم غالباً يسندونها عن مجاهد أو عكرمة أو السدي، وهي روايات مرسلة و,ضعيفة لا تصح للاحتجاج.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴿٩﴾﴾ [يس: 9] [15]

أي منعناهم في الدنيا عن الإيمان بموانع من استكبارهم عن قبول الحقّ ، وعتوّهم وعنادهم .

فَأَغْشَيْنَاهُمْ : يعني أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تبصر؛ ولهذا قال : ﴿**فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ تمثيل أيضًا لسد طرق الإيمان عليهم عقوبة لهم لإعراضهم.

وليس هناك سد حقيقي أي جدار مثلًا بل هذا من باب التمثيل كأنهم لبُعدهم عن الإيمان -والعياذ بالله- وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جُعل بينهم وبينه سد ﴿**مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ**﴾ فلا يتقدمون ﴿**وَمِنْ خَلْفِهِمْ**﴾ فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق، ولا تنظر إليه؛ ولهذا قال :﴿**فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة.

قوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٠﴾﴾ [يس: 10]

إنذارك إيّاهم وعدمه سواء ، فلا ينفعهم الإنذار بسبب العتوّ والاستكبار، وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلا والباطل حقا؟!

وليس المعنى على ظاهره بأن يترك النبي صلى الله عليه وسلم دعوتهم؛ إنما المعنى واصل دعوتك وإنذارك للناس، وإن أصر أناس على الكفر فلا تحزن؛ لأن منهم من كتب الله أزلاً شقوتهم وشقاءهم ، فالله عز وجل أمره بأن ينذر ويبلغ ويدعو، فلما رأى

---

[15] من المشهور بكتب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج مهاجراً إلى المدينة، مر على الكفار الذين اجتمعوا أمام بيته وقد جمعوا له أربعين رجلاً، يريدون قتله بضربة رجل واحد، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ تراباً من الأرض وألقاه على رءوس الجميع وهو يقرأ هذه الآية، وكأن الأربعين جميعا تجمدوا بأماكنهم وانتظروا جميعا لتلقى التراب على رؤوسهم ولم يتحرك منهم أحد. والقصة سندها ضعيف جدا ، والأولى عدم ذكرها إلا للتنبيه عليها .

أناساً مصرين معاندين مكابرين هون عليه تعالى ذلك، وقال: لا تحزن ولا تأسف عليهم، فقد كتب الله شقوتهم أزلاً.

قال تعالى:﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴿١١﴾﴾ [يس: 11]

(مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) أي اتّبع القرآن .

(وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) الخشية: هي شدة الخوف المبني على العلم بعظمة المخشي منه والهيبة منه، قال الله تعالى : (إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَماءُ)[فاطر: 28]، وبين العلم الصحيح والخشية تلازم، ولا يكون المرء عالماً حقاً حتى يكون من أهل الخشية.

والتعبير القرآني تعبير قوي، فمن المعتاد أن يقال: ويخشى الله شديد العقاب سبحانه وتعالى، لكن الله قال: **(وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ)**؛ لأنهم مؤمنون، فالله لا يقنطهم من رحمته، أي: أنتم تخافون من الرحمن فلكم عند الرحمن الرحمة العظيمة الواسعة.

(بالغيب) أي خاف عقاب الله في السرّ والعلن ، وإن لم يره .

أي: أن الذي ينتفع بالموعظة هو ذلك الإنسان المتواضع له سبحانه وتعالى، والذي يقبل كلام رب العالمين، ويعمر قلبه بما جاء به النبي صلوات الله وسلامه عليه.

(فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) أي: فبشر هؤلاء بالمغفرة من الله سبحانه وتعالى، وبشرهم بالأجر الكريم وهو الجنة العالية الغالية، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهلها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴿١٢﴾﴾ [يس: 12]

إنا: عبر هنا سبحانه تبارك وتعالى بنون العظمة لبيان عظيم فعله، وأنه الله الخالق العظيم الذي يحيي الموتى بقدرته سبحانه.

نُحْيِي الْمَوْتَى : نبعثهم بعد الموت .

وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثارهم: ما يقدمه الإنسان هو ما يفعله الآن، وأثره هو ما يتركه بعد وفاته، فيظل موجوداً باقياً، كالوقف الذي يحبسه، كمبنى يبنيه ويجعله مسجداً لله سبحانه وتعالى، هذا أثر للإنسان بعد ما يموت، حيث يظل الناس يصلون في هذا المكان، فيكون هذا أثراً من آثار هذا الإنسان يكتبه الله سبحانه وتعالى، فآثار المرء تبقى وتذكر بعده بخير أو بشر، ولو سن للناس سنة شر لكانت بعده في الناس يذكرونه بها.

من آثار الخير الحسنة التي يتركها الإنسان بعد وفاته: العلم الذي يعلمه، أو النهر الذي يجريه، أو البئر يحفرها للناس، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو مسجداً بناه، أو مصحفاً ورثه، أو ترك أولاداً صالحين يدعون له، كل هذا مما يكون أثراً لهذا الإنسان ينتفع به بعد وفاته ، كما في الحديث **قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ : (إنَّ مِمَّا يلحقُ المؤمنَ من عملِهِ وحسناتِه بعدَ موتِه عِلمًا علَّمَه ونشرَه وولدًا صالحًا ترَكَه ومُصحفًا ورَّثَه أو مسجِدًا بناهُ أو بيتًا لابنِ السَّبيلِ بناهُ أو نَهرًا أجراهُ أو صدَقةً أخرجَها من مالِه في صِحَّتِه وحياتِه يَلحَقُهُ من بعدِ موتِهِ)** حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة

أما الإنسان الذي يسن للناس سنة شر، فيصنع للناس أشياء فيقلده الناس عليها، كإنسان ظلم نوعاً من الظلم وسنه للناس، فصار عليه الناس بعده يسنون هذا الظلم ويتبعونه ويقلدونه، كفرضه على الناس أشياء لم ينزل الله عز وجل بها من سلطان، فيأخذ بها الناس، أو يضرب الناس على أشياء لم يؤمر بها لا في كتاب الله، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا مما يتركه الإنسان ويسنه ويقلده من يليه بعد ذلك، فيأخذ من الناس أموالاً بغير حق، فيقلده الناس في ذلك، فهذا من المظالم .

وهذا ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: قال: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سيئة، كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ، (ثم تلا هذه الآية : (ونكتب ما قدموا وآثارهم)، قال : فقسمه بينهم) أخرجه مسلم وابن أبي حاتم والزيادة التي قبل الأخيرة له، وإسنادها صحيح.

كتابة آثار خطوات العباد إلى المساجد

كذلك من أثر الإنسان آثار مشيه، كما جاء عن جابر في صحيح مسلم عن النبي صلوات الله وسلامه عليه أن بني سلمة كانت بيوتهم بعيدة عن مسجد النبي صلوات الله وسلامه عليه، وخلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد؛ لأن ديارهم بعيدة، وكانوا يحضرون مع النبي صلى الله عليه وسلم جميع الصلوات، فأحبوا أن ينتقلوا قرب المسجد ليهون الأمر عليهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(يا بني سلمة! دياركم تكتب آثاركم)**، يعني: الزموا دياركم، وتكتب آثاركم، والآثار هي الخطوات التي تمشونها إلى بيت الله عز وجل، فهي تعد لكم وتؤجرون عليها.

وروى هذا الحديث الإمام أحمد بلفظ آخر من رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: هممنا أن ننتقل من دورنا لقرب المسجد، فزجرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: **(لا تعروا المدينة، فإن لكم فضيلة على من عند المسجد بكل خطوة درجة)**، يعني: أطراف المدينة يكون سكانها من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، وتبقى أطراف المدينة للمنافقين، ويجيء الكفار من هذه الأماكن، فقال: **(لا تعروا المدينة)**، لا تتركوا أطراف المدينة عارية بحيث يقدم علينا أي أحد ولا ندري ما الذي يحدث فيها.

كتابة آثار الماشين في الظلم[16] إلى المساجد

جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الصحيح قال: **(بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة)** أي: الخارجين من البيت لصلاتي الفجر والعشاء في الظلمة، فمن خرج إلى بيت الله سبحانه يبشره النبي صلى الله عليه وسلم بالنور التام يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴿١٢﴾﴾ [الحديد: 12] فنور المؤمن يترتب على ما عاناه في الدنيا من بذل لله سبحانه، ومن صبر على الطاعة، فيؤجر الأجر العظيم عند الله سبحانه.

---

[16] بفتح اللام :جمع ظلمة

إحصاء أعمال العباد في اللوح المحفوظ:

قوله: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) ورد في تفسيرها قولان للعلماء:

الأول : الإمام المبين : صحائف الأعمال، وهي الكتب التي يجد فيها العباد ما عملوا في الدنيا، كل عبد صحيفته يراها يوم القيامة: **" اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) [**الإسراء:14]

الثاني : الإمام المبين : اللوح المحفوظ، **وهو** كتاب كتب الله فيه مقادير الخلق قبل أن يخلقهم فكتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقد ورد اللوح المحفوظ في القرآن والسنة في عدة مواضع منها:
قوله تعالى: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب)
[الحج:70]

وقوله: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها)الحديد: 22

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين ـ الطويل ـ وفيه: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض".

قال الحافظ ابن حجر أن المراد بالذكر هنا: هو اللوح المحفوظ

وله تسمياتٌ عدةٌ في القرآن:

1- **هو أم الكتاب :**

.لقول الله تعالى : "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ "[الرعد - 39]،

وقوله تعالى :" وَإِنَّهُ في أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ "[الزخرف - 4.]

" فِي أُمِّ الْكِتَابِ " : في اللوح المحفوظ.

قال ابن كثير **" وقوله تعالى :" وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ "** بين شرفه في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى(وإنه) أي:

القرآن " فِي أُمِّ الْكِتَابِ " أي: اللوح المحفوظ.

2- **وهو الذكر :**

وأما كونه (الذِّكر) فلقوله تعالى : "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ " الأنبياء - 105.

الذكر هو أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ عند الله .

3- **وهو الكتاب المكنون:**

وأما كونه (الكتاب المكنون) فلقوله تعالى : " إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ " الواقعة (77-78). **"فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ "** مصون عند الله في اللوح المحفوظ محفوظ من الشياطين، وقيل: مكنون محفوظ عن الباطل.

4- وهو الإمام المبين:

وأما كونه (الإمام المبين) فلقوله تعالى" وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ".

ما الحكمة من كتابة الله تعالى لمقادير الخلق في اللوح المحفوظ وهو لا يضل ولا ينسى ؟

أولاً: يعتقد المسلم الذي آمن بالله تعالى ربّاً أنه تبارك وتعالى الحكيم في فعله ، وشرعه ، وحُكمه، ويعتقد المسلم أنه ثمة حكَماً جليلة في أفعاله ، وتشريعاته ، منها ما يُعرف، ومنها ما استأثر الله بعلمه.

ثانياً :مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى علِم ما يكون من الخلق ، فكتب ذلك في اللوح المحفوظ ، فعلمه تعالى سابق على كتابته ، وقد ذكر العلماء أن القدر له أربع مراتب : العلم ، ثم الكتابة ، ثم المشيئة ، ثم الخلق .

فالمرتبة الثانية من مراتب القدَر : كتابة مقادير كل شيء ، فالمخلوقات مهما عظم شأنها ، أو دق : قد كتب الله ما يخصها في اللوح المحفوظ ، من خلق وإيجاد ونشأة وإعداد وإمداد ، إلى غير ذلك ، **كما قال تعالى : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) الحج/ 70 ، وقال : (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) النمل/ 75 ، وقال تعالى : (وَاللَّهُ**

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) فاطر/ 11 ، والآيات في ذلك كثيرة.

وقد يقال في حكمة ذلك أمور ، منها:

1- **إثبات علم الله السابق على تلك الكتابة ، وأنه علم لا يتبدل ، ولا يتغير** ، وهو جواب موسى عليه السلام في حواره مع فرعون حيث سأل فرعون عن القرون السابقة ما حالهم هل هم في النار أم لا ، فأجابه موسى أن علم حالهم عند الله ، وهو في اللوح المحفوظ ، وأعلمه أن وجود ذلك العلم في اللوح هو مع اتصاف ربه تعالى بالاستغناء عنه ، وأنه سبحانه لا يتصف بالنسيان ، ولا بالخطأ ، كما هو حال البشر ، **قال تعالى : (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى)** [طـه/ 51 ، 52]

2- **طمأنة العبد المسلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه** ، ففيه التسليم لقضاء الله ، والرضى بقدره . قال الله تعالى : **(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)** الحديد/22.

وقد أشار صحابي جليل إلى هذه الحكمة ، فعن أبي حفصة قال : قال عبادة بن الصامت لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **(إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال رب وماذا أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من مات على غير هذا فليس مني) صححه الألباني في " صحيح أبي داود " .**

3- وفيه بيان لمشيئة الله النافذة التي لا راد لها ، ولا معقب لحكمه .
وإليه الإشارة في حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) .صححه الألباني في " صحيح الترمذي " .

3- **إثبات عظيم قدرة الله ، وكماله ، وإقامة الحجة على الخلق** ، ومما لا شك فيه أن كتابة مقادير الخلائق ، وصفاتها ، وأحوالها ، صغيرها وكبيرها ، رطبها ويابسها : أمر عظيم ، وقد بيَّن الله تعالى أنه عليه يسير ؛ إثباتاً لعظيم صفاته ، وكمال جلاله ، قال تعالى : **(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) الحج/ 70 ، وقال الله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)** الأنعام/59.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط ، وأنه شامل للغيوب كلها التي يطلع منها ما شاء من خلقه ، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين ، فضلا عن غيرهم من العالمين ، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار ، والرمال والحصى والتراب ، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها ، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ، ويشتمل عليه ماؤها.

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ) من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة

{ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ } من حبوب الثمار والزروع ، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق ؛ وبذور النوابت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

(وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ) هذا عموم بعد خصوص.

(إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) وهو اللوح المحفوظ ، قد حواها واشتمل عليها .

وبعض هذا المذكور، يبهر عقول العقلاء ، ويذهل أفئدة النبلاء ، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها ، وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك ، فتبارك الرب العظيم ، الواسع العليم ، الحميد المجيد ، الشهيد المحيط ، وجل مِنْ إله، لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثني عليه عباده . فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الحوادث " . [17]

[17] "تفسير السعدي" (259).

المعنى الإجمالي للآيات :

1. يقسم الله تعالى بالقرآن المحكم بما فيه من الأحكام والحكم والحجج ، إنك يا محمد ﷺ لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده ، على طريق مستقيم معتدل ، وهو الإسلام ، وهذا القرآن تنزيل من العزيز في انتقامه من أهل الكفر والمعاصي ، الرحيم بمن تاب من عباده وعمل صالحاً .

2. لقد أنزلنا عليك هذا القرآن يا محمد لتحذّر به قومك وهم العرب ، الذين لم ينذر آباؤهم الأقربون ، فهؤلاء القوم ساهون عن الإيمان والاستقامة على العمل الصالح.

3. وإنّ كل أمة ينقطع عنها الإنذار تقع في الغفلة ، وفي هذا دليل وجوب الدعوة والتذكير على العلماء بالله وشرعه ، لإيقاظ المسلمين من غفلتهم .

4. وإنّ أكثر هؤلاء الكافرين قد وجب عليهم العذاب لإعراضهم عن الحقّ ، فهم لا يصدقون بالله تعالى ولا برسوله ﷺ ، ولا يعملون بشرع الله وهديه .

5. وإنّ مثل هؤلاء الكفار الذين عرض عليهم الحق فردوه ، وأصروا على الكفر وعدم الإيمان ، كمن جعل في أعناقهم أغلال ، فجمعت أيديهم مع أعناقهم تحت أذقانهم ، فاضطروا إلى رفع رءوسهم إلى السماء فهم مغلولون عن كل خير ، لا يبصرون الحق ولا يهتدون إليه .

6. وجعلنا من أمام الكفار سداً ومن ورائهم سداً ، فهم بمنزلة من سدّ طريقه من بين يديه ومن خلفه ، فأعمينا أبصارهم ؛ بسبب كفرهم واستكبارهم ، فهم لا يبصرون رشداً ولا يهتدون ، وكلّ من قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد ، فهو حقيق بهذا العقاب .

7. وإنّ كثيراً من هؤلاء الكفار المعاندين يستوي تحذيرك لهم وعدم تحذيرك ، فهم لا يصدقون بالحقّ ، ولا يعملون بمقتضاه .

8. ولكنّ تحذيرك ينفع من آمن بالقرآن ، واتبع ما فيه من أحكام الله تعالى ، ووعده ووعيده ، وخاف الرحمن ، دون أن يراه ، وحيث لا يراه أحد إلا الله ، فبشر هذا وأمثاله بمغفرة من الله لذنوبه ، وثواب منه عظيم في الآخرة على أعماله الصالحة .
9. إنا نحن نحيي الأموات جميعاً ببعثهم ليوم القيامة ، وجمعهم للحساب ، ونكتب ما عملوا من الخير والشر ، وآثارهم التي كانوا سبباً فيها في حياتهم وبعد مماتهم من خير ، كالولد الصالح ، والعلم النافع ، والصدقة الجارية ، أو شرّ كالكفر والعصيان ، وكل شيء جمعناه وسجّلناه في كتاب واضح هو أم الكتب ومرجعها ، وهو اللوح المحفوظ . فعلى العاقل أن يحاسب نفسه ، ويستقيم على مرضاة ربّه ، ليكون قدوة للناس في الخير في حياته وبعد مماته .

أهم ما يستفاد من الآيات:

1 ـ القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة ، وهو تنزيل من ربّ العالمين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
2 ـ إنّ محمد بن عبد الله ﷺ رسول من عند الله تعالى ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ، للعالمين بشيراً ونذيراً ، على منهج وطريق ودين مستقيم هو الإسلام .
3 ـ إن رءوس الكفر والطغيان ، والتكذيب والعناد من أهل مكّة أو العرب ، أو ممّن يأتي بعدهم إنما يستحقّون الخلود في نار جهنّم ، لأنّهم أصرّوا على الكفر ، وأصمّوا آذانهم ، وأعموا أبصارهم عن النظر في آيات الله ، والتفكّر في دلائل وحدانيّته وقدرته .
4 ـ وما جاء من الآيات بعد قوله تعالى : **{ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** إنّما هو كالتعليل والتدليل على عدم إيمان هؤلاء الكافرين ، فكأنّ سائلاً سأل : **لماذا حُرموا من نعمة الإيمان ؟ وحَقّ عليهم العذاب ؟** فكان الجواب لأنّهم حجبوا عن أنفسهم بأنفسهم دلائل الحقّ ، فكان حالهم كحال السجين المغلول اليدين والرأس ، وقد اجتمع عليه مع ذلك الحبس

في مكان ضيّق بين سدّين وجدارين : سدّ أمامه ، وسدّ خلفه ، فأنّى له المخرج من ذلك ؟

5 لا أمل في إنذار الكفّار والمعاندين إذا سدّوا على أنفسهم منافذ الهداية ومدارك المعرفة ، ولم تتفتّح بصائرهم لرؤية الحقّ والنور الإلهيّ .

6 وإنما ينفع الإنذار من آمن بالقرآن الكريم كتاباً منزّلاً من عند الله ، واتّبع ما فيه من الحقّ ، وخشي عذاب الله وسخطه ، فله البشارة من الله تعالى بمغفرة ذنوبه ، ودخول الجنة دار النعيم والتكريم .

7 البعث حقّ ، والإيمان به واجب ، لأنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء ، وقد أحصى الله كل شيء من أعمال العباد وضبطه في كتاب مبين .

****

الفصل الثاني

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: 13-32]

الفصل الثاني

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ

قال الله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ۝١٣﴾ [يس: 13]

هل هناك فرق بين القرية والمدينة في القرآن؟

ورد في نصوص الوحي إطلاق اسم " القرية" واسم "المدينة" على مسمى واحد.

كقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]، **ثم قال تعالى:** ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82]

وفي السورة هنا قال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ۝١٣﴾ [يس: 13] **ثم قال تعالى بعد ذلك:** ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ۝٢٠﴾ [يس: 20]

قال الشوكاني: (وأما الجدار) يعني: الذي أصلحه **(فكان لغلامين يتيمين في المدينة)**هي القرية المذكورة سابقا، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة [18]

وقال القرطبي: ودل قوله: **(في المدينة)** على أن القرية تسمى مدينة، ومنه الحديث **(أمرت بقرية تأكل القرى)** -أي المدينة-، وفي حديث الهجرة **(لمن أنت) فقال الرجل: من أهل المدينة، يعني مكة.** [19]

---

(18) "فتح القدير" (3 / 419 - 420).
(19) "تفسير القرطبي" (13 / 354).

وقال ابن كثير: في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولا (حتى إذا أتيا أهل قرية)، وقال هاهنا: (**فكان لغلامين يتيمين في المدينة**)، كما قال تعالى: (**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك**)، (**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**)، يعني: مكة والطائف . [20]

ثانيا: التفريق الذي يفرقه الناس بين القرية والمدينة، إنما تفريق عرفي، بحسب ما يغلب عليه الإطلاق بين الناس، لا أن أصل الوضع اللغوي يقتضي ما ذكر من الفروق ، أو غيرها .

لكن هذا من حيث اللغة لا اشكال فيه، فتطلق القرية على المدينة، والعكس.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:" فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة، لأن أصل القرية معناه مأخوذ من القرى، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها، فإذا كانت بلدة كبيرة سميت في عرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك ، سميت في عرف الناس قرية، فالتفريق بين القرية والمدين ما هو إلا اصطلاح عرفي فقط .[21]

قصة أصحاب القرية

قال تعالى:﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴿١٣﴾﴾ [يس: 13]

يذكر القرآن قصة لأناس سبقوا النبي صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ﴾: أي : شبّه حالهم في تكذيبهم بك بشبيه من السابقين .

﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴿١٣﴾﴾ [يس: 13] وهي مدينة أبهم القرآن الكريم اسمها ، كما أبهم اسم المرسلين إليها ، ولم يرد في صحيح السنّة أو الآثار ما يعيّن شيئاً من ذلك ، وقد دأب كثير من المفسّرين على أنّها مدينة أنطاكية ، جنوبيّ تركيا ،

---

[20] تفسير ابن كثير" (5 / 185).
[21] تفسير سورة يس" (ص 72).

وشماليّ بلاد الشام وهذا غير صحيح ، إذن فهي قرية ما ولو كان في ذكرها فائدة لذكر الله ذلك في كتابه .

من هم الرسل الثلاثة؟

اختلف المفسرون في هؤلاء الرسل الثلاثة الذين ضرب الله بقصتهم مثلا في سورة " يس "، هل هم من رسل الله عز وجل ، أم من أصحاب المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وذلك على قولين :

القول الأول : أنهم رسل الله تعالى ، ورسله عز وجل كثيرون ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴿٧٨﴾ **[غافر: 78]**، واختار هذا القول من المحققين شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن كثير . [22]

ويمكن أن يستدل له بما يأتي :

أولا : جواب أهل القرية لهؤلاء المرسلين كان بقولهم : **(ما أنتم إلا بشر مثلنا)**، وهذا الجواب حكاه القرآن الكريم عن تكذيب الكفار لرسل الله ، فقد كانوا يريدون إرسال الملائكة بدلا من البشر ، ولو كانوا رسلا لعيسى عليه السلام لم ينكر أصحاب القرية رسالتهم بهذه الحجة .

ثانيا : ظاهر القرآن الكريم يدل على أنهم رسل الله مباشرة ، وذلك في قوله تعالى : **(إذ أرسلنا إليهم اثنين)** فنسب الإرسال إلى نفسه عز وجل بضمير الجمع **(أرسلنا)**

---

[22] يروى هذا القول عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، لكن الإسناد إليهم لا يصح ، حيث يرويه الطبري في " جامع البيان " (500/20) وفي إسناده انقطاع ظاهر ، ونقله ابن تيمية في " الجواب الصحيح " (247/2) من كلام أبي العالية حيث قال عنهم : " قالوا : نحن رسل رب العالمين "

ثالثا: ومما يقطع في المسألة ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعَلاّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيني وبينه نبي".**

فقوله: (وليس بيني وبينه نبي) دليل واضح أن عيسى عليه السلام هو آخر نبي قبل محمد ﷺ، فلا يوجد نبي بينهما.

القول الثاني : أنهم رسل المسيح عيسى بن مريم ، بعثهم إلى مدينة " أنطاكية "، وقد روى هذا القول جماعة من العلماء عن قتادة فيما بلغه ، واعتمده أكثر المفسرين وقدموه في تفسيرهم للآيات ، بل قال ابن كثير: "هو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره" [23]

ودليل هذا القول هو النقل عن قتادة فقط ، وإلا فليس في سياق القصة في القرآن الكريم تصريح ولا تلميح بذلك .

قال قتادة رحمه الله : " ذكر لنا أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية -مدينة بالروم- فكذبوهما فأعزهما بثالث " [24]

ثم أجابوا عن أدلة القول الأول بما يأتي :

أولا : اعتراض أصحاب القرية بكون الرسل بشرا هو من التعنت الذي اعتاده المكذبون ، والمتعنت لا فرق عنده بين رسل الله المباشرين ورسل عيسى عليه السلام ، فهو يبحث عن الجدال العقيم ، ويتذرع بأي شبهة ليكذب بها الرسل ، فيستعمل هذا الجواب الداحض لكل من ذكره بالله ، وأمره بالإيمان به وحده لا شريك له .

---

[23] " تفسير القرآن العظيم" (573/6) وانظر : " تفسير البغوي " (10/7)، " الكشاف " (7/4)، " التسهيل لعلوم التنزيل " لابن جزي (180/2)، "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" لأبي السعود (161/7)، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي (4/ 264)، "مفاتيح الغيب" للرازي (260/26)، "فتح القدير " للشوكاني (417/4)

[24] رواه الطبري بإسناده في " جامع البيان " (500/20)

ثانيا : أما الإسناد إلى ضمير الجمع (**إذ أرسلنا إليهم اثنين**) قالوا هو على سبيل المجاز ، فإن رسل عيسى هم رسل الله عز وجل أيضا ، ولكن بالواسطة ، فجاز في اللغة نسبتهم إلى المرسل الأول .

مناقشة شيخ الإسلام ابن تيمية للمسألة:

وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مناقشة هذا الموضوع في كتابه " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح "، وذلك في معرض الجواب عن دعوى من يقول إن الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام كانوا من الرسل أو من الأنبياء ، وبعضهم يستدل بهذه الآيات في سورة يس ، فبين بوجوه كثيرة أن الرسل الثلاثة الوارد ذكرهم في سورة يس هم رسل الله أرسلوا إلى تلك القرية قبل بعث المسيح عليه السلام .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :" بعضهم يقول : إن المسيح أرسلهم في حياته ، لكن المعروف عند النصارى أن أهل أنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم ، لم يهلك الله أهل أنطاكية ، والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذي آمن بالرسل .

وأيضا فالنصارى يقولون : إنما جاءوا إلى أهل أنطاكية بعد رفع المسيح ، وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث ، قيل : أحدهما شمعون الصفا ، والآخر بولص ، ويقولون إن أهل أنطاكية آمنوا بهم ، ولا يذكرون حبيب النجار ، ولا مجيء رجل من أقصى المدينة ، فالأمر المنقول عند النصارى أن هؤلاء المذكورين في القرآن ليسوا من الحواريين ، وهذا أصح القولين عند علماء المسلمين وأئمة المفسرين ، وذكروا أن المذكورين في القرآن في سورة يس ليسوا من الحواريين بل كانوا قبل المسيح ، وسموهم بأسماء غير الحواريين ; كما ذكر محمد بن إسحاق .

وهذا القول هو الصواب ، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلا لله قبل المسيح ، وأنهم كانوا قد أرسلوا إلى أنطاكية ، وآمن بهم حبيب النجار ، فهم كانوا قبل المسيح ، ولم تؤمن أهل المدينة بالرسل ؛ بل أهلكهم الله تعالى كما أخبر في القرآن ، ثم بعد هذا عمرت أنطاكية وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين ، فآمنوا بالمسيح على أيديهم ، ودخلوا دين المسيح .

ويقال إن أنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح - عليه السلام - وذلك بعد رفعه إلى السماء ، ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين في القرآن هم رسل المسيح وهم من الحواريين ، وهذا غلط لوجوه :

منها : أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل ، وأهل أنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا .

ومنها : أن الرسل في القرآن ثلاثة ، وجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين ، ولم يأتهم رجل يسعى ، لا حبيب ، ولا غيره .

ومنها : أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح ، فلم يكن الله أرسلهم .

ومعلوم عند الناس أن أهل أنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح ، بل آمنوا قبل أن يبدل دينه ، وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك .

ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم ; كما أهلك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وغيرهم ، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار ; كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة ، وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء ، فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين في يس كانوا قبل موسى عليه السلام .

وأيضا فإن الله لم يذكر في القرآن رسولا أرسله غيره ، وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو، وأيضا فإنه قال : **(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث)** [يس/14] فأخبر أنه أرسلهم ; كما أخبر أنه أرسل نوحا وموسى وغيرهما .

وفي الآية : **(قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء)** [يس/15] ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال : إن الله أرسله وأنزل عليه الوحي لا لمن جاء رسولا من عند رسول .

وقد قال بعد هذا : **(يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)** [يس/30.]، وهذا إنما هو في الرسل الذين جاءوهم من عند الله ، لا من عند رسله ،

وأيضا فإن الله ضرب هذا مثلا لمن أرسل إليه محمدا صلى الله عليه وسلم يحذرهم أن ينتقم الله منهم ؛ كما انتقم من هؤلاء ، ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره ، لا بمن أصحابه أفضل منهم ، فإن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين ، ولم يبعث الله بعد المسيح رسولا ، بل جعل ذلك الزمان زمان فترة .

وأيضا فإنه قال تعالى : **(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا)** [يس/14]، ولو كانوا رسل رسول ، لكان التكذيب لمن أرسلهم ، ولم يكن في قولهم : **(إن أنتم إلا بشر مثلنا)** شبهة فإن أحدا لا ينكر أن يكون رسل رسل الله بشرا ، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشرا .

وأيضا : فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول ، لأمكنهما أن يقولا : فأرسلوا إلى من أرسلنا أو إلى أصحابه ، فإنهم يعلمون صدقنا في البلاغ عنه ، بخلاف ما إذا كانا رسل الله .

وأيضا فقوله : **(إذ أرسلنا إليهم اثنين)** [يس/14] صريح في أن الله هو المرسل ، ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله ؛ كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله إنهم رسل الله ، فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبي أن الله أرسله ، ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة وعبد الله بن حذافة وأمثالهما ممن أرسلهم الرسول .

ومعلوم أنه لا يقال في هؤلاء : إن الله أرسلهم ، ولا يسمون عند المسلمين رسل الله ، ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون في قوله : **(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات)** [الحديد/25.]

فإذا كانت رسل محمد صلى الله عليه وسلم لم يتناولهم اسم " رسل الله " في الكتاب الذي جاء به ، فكيف يجوز أن يقال : إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره " انتهى[25]

---

[25] باختصار من " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " (2/245-255)، وقد اختصر ابن كثير كلام شيخه ابن تيمية ، وأعاد صياغة الردود ، وذلك في " تفسير القرآن العظيم " (6/573-574) .

قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴿١٤﴾﴾ [يس: 14]

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى هذه القرية ثلاثة من الرسل لدعوة أهل هذه القرية.

فتوجه اثنان منهم إلى هذه القرية يدعوان ملكها إلى دين الله سبحانه تبارك وتعالى، فكذبوا هذين الاثنين.

(فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) والتعزيز بمعنى الشد والتقوية، يعني: شددنا الاثنين بثالث، يقويهما ويتكلم معهما، ويدعو إلى الله سبحانه تبارك وتعالى.

فقالوا لهم: **(إنا إليكم مرسلون)** ، أرسلنا الله إليكم لندعوكم إلى عبادة الرب سبحانه، وعلى عادة أهل الكفر بالتكذيب والإعراض قالوا:

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴿١٥﴾﴾ [يس: 15] **[يس:15]**

أي: فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟

قالت الرسل: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿١٧﴾﴾ [يس: 16-17]

يعني: نحن صادقون فيما نقول، والله يشهد علينا بأنا صادقون فيما نقول، وما علينا إلا أن نبلغ رسالة الله سبحانه بلاغا بينا واضحا، ونريكم آيات الله سبحانه وتعالى.

فكان رد القوم كما ذكر الله تعالى :﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٨﴾﴾ [يس: 18]

(إنا تطيرنا) تشاءمنا بكم ، مبالغة منهم في استقباح ما يدعون إليه ، ونفورهم منه .

والتطيّر في الأصل : تكلّف معرفة دلالة الطير على خير أو شرّ ، بالنظر إلى نوع الطير ، وصفة اندفاعه وجهة اندفاعه أو مجيئه ، ثمّ أطلق على كلّ حدث يتوهّم منه أحد أنّه كان سبباً في لحاق شرّ به فصار مرادفاً للتشاؤم .

أي: نحن تشاءمنا منكم، فإما أن تنتهوا عن هذا الذي تدعوننا إليه، وتذهبوا بشؤمكم، أو نرجمكم، والرجم هو القذف بالحجارة حتى القتل، كأنهم يهددونهم بأن يقتلوهم رميا بالحجارة، سنعذبكم، إما أن تنتهوا عما أنتم فيه أو سنفعل بكم ونفعل من ألوان العذاب.

فقالت الرسل: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴿١٩﴾﴾ **[يس: 19]**

طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ : سبب شؤمكم يعود عليكم ، وهو الكفر والتكذيب ،

أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ : أئن وعظناكم وذكّرناكم بالله تعالى ، ودعوناكم إلى الحقّ ونصحناكم تشاءمتم بنا وبما ندعوكم إليه .

قَوْمٌ مُسْرِفُونَ : متجاوزون الحدّ في الشرك ومخالفة الحقّ .

قصة مؤمن القرية:[26]

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴿٢٠﴾﴾ **[يس: 20]**

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) أَقْصَى الْمَدِينَةِ : أبعد مواضعها .

(يَسْعَى) : والتعبير بقوله: يَسْعى: يدل على صفاء نفسه، وسلامة قلبه، وعلو همته، ومضاء عزيمته، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق، ولم يرتض أن يقبع في بيته- كما يفعل الكثيرون- بل هرول نحو قومه، ليقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

---

[26] يروى في كتب التفسير أن هذا الرجل كان اسمه حبيب النجار، لأنه كان يشتغل بالنجارة، وأرى أنه لا حاجة إلى ذكر ذلك، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكروه عنه، ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله- تعالى- عليه بصرف النظر عن اسمه أو صنعته أو حاله، لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها في القرآن الكريم هو الاعتبار والاقتداء بأهل الخير.

فقال: **(يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)** الذين جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم، ولإنقاذكم من الضلال المبين الذي انغمستم فيه.

ثم قال لهم كما ذكر الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٢٤﴾﴾ **[يس: 21-24]**

(اتبعوا من لا يسألكم أجرا) كرر الأمر بالاتباع من باب التأكيد، أي: اتبعوا من نصحكم نصحا يعود إليكم بالخير، ولا يريد منكم أجرا على نصحه لكم وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.

(وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وقوله **{وَمَا لِيَ}** الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، يعني أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده، يتكلم عن نفسه.

وقوله: **{الَّذِي فَطَرَنِي}** أي خلقني لأول مرة، والفطر والإبداع بمعنى الإيجاد لأول مرة،

ولم يقل: لا أعبد الله ليقرن بين الحكم والدليل؛ لأن قوله: **"أعبد الذي فطرني"** مقتضى لكونه هو المعبود، إذ إنه هو الخالق، فلزم أن يكون هو المعبود وهذا كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}** [البقرة: 21] فقوله: **{الَّذِي خَلَقَكُمْ}** كتعليل للأمر بعبادته وحده، كما أنَّه الخالق وحده، فيجب أن يكون المعبود وحده.

والمعنى: لماذا أنا لا أدخل في دين هؤلاء؟ لم لا أعبد الذي فطرني وهم يدعونني إليه: وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، سوف نرجع إلى الله سبحانه وتعالى مرة ثانية.

(**أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً)** هل أعبد آلهة من دون الله سبحانه، وماذا تنفع هذه الآلهة؟

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ) أي هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن يُنزل بي شيئاً من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟

والمقصود: التعريض بالمخاطبين في اتخاذهم تلك الآلهة بعلة أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى.

ولو أني عبدت هذه الأصنام من دون الله سبحانه: **(إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)** أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي.

ثم قال لهم كما ذكر الله تعالى: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: 25-27]

(إِنِيَ آمنت بربكم فاسمعون * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ) وكأن هنا شيئاً محذوفاً في السياق، وكأنه أول ما قال إنه مؤمن قاموا إليه فقتلوه، فكان شهيدا عند الله سبحانه، فأدخله الله عز وجل الجنة.

(قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) أي فلما دخل الجنة وعاين ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره تمنى أن يعلم قومه بحاله، ليعلموا حسن مآله أي يا ليتهم يعملون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وأكرمني بدخول جنات النعيم .[27]

قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته.

قال الإمام القرطبيّ رحمه الله : " وفي هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترأف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار ، وأهل البغي ، والتشمّر في تخليصه ، والتلطّف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به أو الدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنّى الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل ، وهم كفرة عبدة أصنام ."

---

[27] روى ابن أبى حاتم أن عروة بن مسعود الثقفي، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام، فقال له صلى الله عليه وسلم «إني أخاف أن يقتلوك» ، فقال: يا رسول الله، لو وجدوني نائما ما أيقظوني. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «انطلق إليهم» فانطلق إليهم، فمر على اللات والعزى فقال: لأصبحنك غدا بما يسوؤك، فغضبت ثقيف فقال لهم: يا معشر ثقيف: أسلموا تسلموا- ثلاث مرات-. فرماه رجل منهم فأصاب أكحله فقتله- والأكحل: عرق في وسط الذراع- فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «هذا مثله كمثل صاحب يس قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

قال تعالى:﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴿٢٨﴾﴾ [يس: 28]

يعني: هؤلاء أحقر من أن ننزل عليهم جنداً من السماء لإهلاكهم وما كنا لنفعل ذلك بهم؛ فما كان الأمر إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً من جبريل عليه السلام فهلكوا.

قال تعالى:﴿ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿٣٠﴾﴾ [يس: 29-30]

(إن كانت إلا صيحةٌ واحدةٌ) صَيْحَةً وَاحِدَةً : صوتاً مهلكاً من السماء .

(فإذا هم خامدون) ميّتون لا حراك بهم ، كما تخمَد النار .

والمعنى: ووقعت صيحة واحدة على هؤلاء فإذا هم خامدون، والإنسان عندما تكون فيه النفس يكون حياً، فإذا خرج روحه من جسده همد وخمد، وذهبت منه الحياة، فإذا بصيحة من جبريل على هؤلاء أخمدتهم جميعهم.
انظر كيف أخمدهم الله سبحانه وتعالى بصيحة واحدة، ولم ينزل عليهم ملائكة .

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ) يا ويلاً أو يا تندّماً ! على الخلق أن يكفروا ، فتكون تلك عاقبتهم ، والحسرة : شدّة الغمّ والندم مشوباً بتلهّف على نفع فائت ، وجاء التحسر على وجه النداء كأنه قال: يا حسرة أقبلي، والحسرة الندامة والتلهف على الشيء الذي يفوت، ففاتهم الإيمان.

أي: تعجبوا لأمر هؤلاء العباد الذين يستحقون أن يتحسروا على أنفسهم وينادوا على الحسرة وعلى الندامة حين لا تنفعهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴿٣٢﴾﴾ [يس: 31-32]

أي ألم يتعظ هؤلاء المشركين بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم؟

وهذا دليل على أنه لا أحد يموت فيرجع إلى الدنيا مرة ثانية إلا أن تكون معجزة لنبي من الأنبياء، فيحيي ميتاً ثم يموت مرة ثانية، كما كانت للمسيح عليه الصلاة والسلام. وما يذكره البعض من الناس من رجوع روح فلان وما أشبه ذلك كله من الكذب والخرافات.

(وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب.

المعنى الإجمالي للآيات :

1-واضرب يا محمّد لمشركي مكّة ، الرادّين لدعوتك اضرب لهم مثلاً بأصحاب مدينة فيه عبرة لهم ، حين ذهب إليهم المرسلون ، فلقد أرسلنا إليهم رسولين لدعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى ، وترك عبادة من سواه ، فكذّب أهل القرية الرسولين ، وأبوا الاستجابة لدعوة الحقّ ، فقوّينا دعوتهم برسُول ثالث ، فقال الثلاثة لأهل القرية : إنّا مرسلون إليكم من ربّ العالمين .

2-فقال أهل القرية للمرسلين : ما أنتم إلاّ أناس مثلنا ، لا مزيّة لكم علينا ، وما أنزل الرحمن شيئاً من الوحي ، وما دعوتكم لنا إلاّ كذب وافتراء .

3-فقال المرسلون : إنّ ربّنا الذي أرسلنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلاّ أن نبلّغكم رسالة ربّنا كما أمرنا ، ولا نملك هدايتكم ، فالهداية بيد الله وحده .

4-قال أهل القرية : إنّا تشاءمنا منكم ، لئن لم تكفّوا عن دعوتكم لنقتلنّكم رمياً بالحجارة ، وليصيبنّكم منّا عذاب أليم موجع .

5-فقال المرسلون : إنّما شؤمكم وأعمالكم من الشرك بالله تعالى والشرّ معكم ، ومردودة عليكم ، هل لأننا وعظناكم بما فيه خيركم وصلاحكم تشاءمتم بنا ، وتوعدّتمونا بالرجم والتعذيب ؟! بل أنتم من عادتكم الإسراف في التكذيب والعصيان .

6-وهيّأ الله تعالى رجلاً مؤمناً صالحاً ، فجاءهم من مكان بعيد من أقصى المدينة ، بعدما سمع بخبر المرسلين ، وأنّ قومه يهمّون بقتل الرسل أو تعذيبهم ، فنصح قومه بقوله : يا قومي اتّبعوا المرسلين إليكم من الله ، إنّهم لا يطلبون منكم أموالاً على تبليغ

الدعوة ، ممّا يدلّكم على صدقهم وإخلاصهم ، وهم مهتدون فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده ، وفي هذا بيان فضل من سعى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

7-ثمّ قال لهم: كيف أعبد من دونِ الله آلهةً ، لا تملك من الأمر شيئاً ؟! إن قدّر الرحمن عليّ شيئاً من السوء، فهي لا تستطيع دفعه أو منعه، ولا تستطيع إنقاذي ممّا أنا فيه؟ إنّي إن فعلت ذلك لفي انحراف عن الحقّ واضح ، إنّي آمنت بربّي وربّكم ، فاستمعوا ما قلته لكم ، واستجيبوا للإيمان كما استجبت .. فلمّا قال لهم ذلك ، وثب إليه قومه فقتلوه ، فأدخله الله الجنّة ، فقال وهو في النعيم والتكريم ، متأسّفاً على حال قومه ، مشفقاً على مصيرهم : يا ليت قومي يعلمون ، بغفران ربّي لي ، وإكرامه إيّاي بسبب إيماني بالله ورسله ، وصبري في سبيله ، ليتهم يعلمون ذلك فيستجيبوا كما استجبت ، ليدخلوا الجنّة كما دخلت ، وينالوا من الكرامة ما نلت .

8-وما احتاج عذاب هؤلاء المكذّبين المعاندين إلى إنزال جند من السماء ، فهم أهون على الله وأضعف من ذلك ، وما كنّا ننزل الملائكة على الأمم إذا أردنا إهلاكهم ، بل نبعث عليهم عذاباً يدمّرهم ، ويقضي عليهم ، لقد جاءت هؤلاء صيحة واحدة ، فإذا هم ميّتون ، لم تبق منهم باقية .

9-فيا أسفاً على هؤلاء المكذّبين والمستهزئين بالرسل ، لما حلّ بهم من العذاب في الدنيا ، وما سيعاينون بأعينهم يوم القيامة .! حين يرون العذاب فلا تنفعهم الندامة .

10-ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون التي أهلكناها أنهم لا يرجعون إلى هذه الدنيا ؟

11-ولكنّ كلّ هذه القرون التي أهلكها الله وغيرها سيحضرهم جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء ، فليس إحضارهم في أوقات مختلفة ، ولا في أماكن متعدّدة ، كما قضت بذلك حكمته وعدله وفضله ، لينال كلّ مكلّف جزاءه ، ولا يظلم ربّك أحداً .

أهم ما يستفاد من الآيات :

1- لقد نوّع الله تعالى في القرآن أساليب الدعوة إلى دينه : بسوق الأدلة والبراهين ، أو بالحثّ على النظر في خلق السموات والأرض ، وما بثّ فيهما من دابّة ، وإعمال العقل والفكر ، أو بضرب الأمثال ، وذكر قصص الأنبياء والمرسلين ، وما كان من أخبار أقوامهم معهم ، وكلّ ذلك ليتّضح الحقّ وتقوم الحجّة على الناس .

2- قضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، كيلا يبادر الناس إلى الاعتراض بحجة المغايرة والمخالفة ، فتكون اعتراض الكافرين ببشرية الرسل نوعاً من المعاندة والاستكبار .

3- إنّ تشاؤم أصحاب القرية بالرسل دليل على فساد تفكيرهم وإفلاس حجتهم ، ولكنّ الشؤم الحقيقي هو من أهل القرية لشركهم بالله تعالى وكفرهم ، وتكذيبهم للرسل عليهم السلام ، وعنادهم للحقّ .

4- قضت حكمة الله تعالى ألاّ يرجع أحد إلى الدنيا بعد موته ، وإنّما موعد الخلق جميعاً هو يوم القيامة ، لفصل القضاء بين الناس ، وإقامة العدل بين العباد ، وفي الآيات تكذيب وردّ على من يقول بتناسخ الأرواح أو بالرجعة بعد الموت إلاّ ما كان من ذلك خصوصيّة من الله لبعض عباده ، أو معجزة وتكرمة ، كقصّة عزير ، أو إحياء الموتى لعيسى عليه السلام أو ما أشبه ذلك .

5- على المؤمن الداعية أن يوطّن نفسه على الابتلاء في سبيل دينه ، وقد يبلغ به الابتلاء القتل في سبيل الله ، أو السجن ، أو التشريد في الأرض ، ولكنّ جزاءه عند الله هو النعيم المقيم ، والتكريم في جنان الخلد .

6- المؤمن الحقّ يحبّ للناس ما يحبّ لنفسهِ ، ويكره لهم ما يكره لها ، وهذا المؤمن ، أبلغ في النصح لقومه ، حتّى نال شرف الموت في سبيل الله تعالى .

****

الفصل الثالث

من آيات القدرة والإبداع

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴿٤٤﴾﴾ [يس: 33-44]

الفصل الثالث

من آيات القدرة والإبداع

قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴿٣٣﴾﴾ [يس: 33]

لما قال تعالى: **(وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ)** كان ذلك إشارة إلى الحشر، فذكر ما يدل على إمكانه قطعا لإنكارهم واستبعادهم، وعنادهم فقال: **(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها)** أى: وكذلك نحيى الموتى

وَآيَةٌ : علامة دالّة على القدرة المطلقة ، ومن أخصّ ذلك القدرة على البعث بعد الموت ، قال أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلهُ ... أمْ كيف يجْده الجاحِدُ؟

ولله في كل تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبداً شاهد

وفي كل شيءٍ له آيةً ... تدل على أنه واحد

(الأرض الميتة) الأرض الجدباء التي لا نبات فيها.

(حبا) أي وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا.

أى: ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المشركين على قدرتنا على إحياء الموتى، أننا ننزل الماء على الأرض الجدباء، فتهتز وتربو، وتخرج ألوانا وأصنافا من الحبوب التي يعيشون عليها، ويأكلون منها، وكل إنسان له عينان يرى الأرض جرداء، ثم ينزل عليها المطر، فأنبتت ما يأكل الناس والأنعام.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴿٣٤﴾﴾ [يس: 34]

(وَجَعَلْنَا فِيهَا) أي: في هذه الأرض التي كانت ميتة.

(جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) جَنَّاتٍ : جمع جَنّة ، وهي البساتين ذات الأشجَار المثمرة كالنخيل والأعناب .

أي: وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب، وخص النخيل والأعناب بالذكر، لأنها أشهر الفواكه المعروفة لديهم، وأنفعها عندهم.

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون) وفجرنا وشققنا فيها كثيرا من الآبار والعيون التي تسقى بها تلك الزروع والثمار.

قال سبحانه: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴿٣٥﴾﴾ [يس: 35]

(ليأكلوا من ثمره) ليأكلوا من ثمر ما أخرجناه من الأرض.

(**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**) قد تكون (ما) نافية، فيكون المعنى: أن الله سبحانه هو الذي أخرج ذلك والتقدير: لتأكلوا هذه الثمار ولم تعمل أيديكم هذه الثمار، إنما الذي خلقها وأوجدها الرب سبحانه وتعالى، الذي أنزل الماء من السماء، وأحيا هذه الأرض.

أو تكون (ما) بمعنى (الذي) فيكون المعنى: والذي علمت أيديهم ، والمعنى: أن الله خلق لك هذا القمح، ثم أخذته وطحنته ثم عجنته وأدخلته الفرن، فأخرجته خبزاً، فهذا الذي عملت يداك مما أخرجه الله سبحانه، وكلا المعنيين صحيح.

(**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**) أي: هلا شكروا الله سبحانه على ما أخرج لهم، وعلى ما رزقهم من عقول فيصنعون ذلك ، وانظر إلى البهائم والحشرات والطيور كيف تأكل الثمرة كما هي، وتلتقط الحبة كما هي؛ لكن أنت أيها الإنسان أعطاك الثمار، وأعطاك الحبوب، وأعطاك العقل لتفكر، وألهمك كيف توقد النار وكيف تصنع الطبيخ، وكيف تصنع الحلوى، أفلا تشكر الله سبحانه وتعالى، وكان قادراً على أن يحجب عنك ذلك، فتأكل الطعام كما يخرج من الأرض بدون طبخ وإصلاح.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴿٣٦﴾﴾ [يس: 36]

(سبحان) أي: تقدس الله تعالى ألا يُشكر، وينزه عن النقص والعيب، وعن أن يذكر معه غيره، وعن أن يكون له الصاحبة أو الولد، أو الشريك في ملكه، فهو الخلاق

العظيم العليم وحده لا شريك له. وقوله (سبحان) مصدر، والفعل سبح، أي: أسبح الله تسبيحاً وسبحاناً، فعبر بالمصدر نيابة عن جملة فيكون المعنى: سبحوا الله تسبيحاً عظيماً.
و(الأزواج) الأصناف والأنواع، فكلها خلقها الله سبحانه وتعالى، مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ فأخرج لكم من الأرض أزواجاً.

(وَمِنْ أَنفُسِهِمْ) وخلق الأزواجَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وهم الذكور والإناث من بني آدم .

(وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) من أصناف المخلوقات العجيبة في البرّ والبحر، وفي السماء والأرض ، ممّا لم يطلعهم الله عليه ، ولم يجعل لهم سبيلاً إلى معرفته ، وقد يعرّفهم الله به بعد حين .

قال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴿٣٧﴾﴾ [يس: 37]

(نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) نفصل منه النهار ونزيله عنه ، والسلخ : إذهاب الضوء ، ومجيء الظلمة ، وأصله إزالة الجلد عن الحيوان .

وهذا التعبير الدقيق في كتاب الله سبحانه وتعالى يرينا هذه الآية العظيمة، كأن هذا ينسلخ من ذاك، فيبدو للناس الليل ويظهر للناس النهار على ما يريهم الله سبحانه تبارك وتعالى.

الكون كله ليل، وجزء من الكون وهو الهواء الذي فوق الأرض يظهر فيه النهار، ثم ينسلخ بدوران الأرض كما ينسلخ الجلد من فوق الضحية التي تذبحها.

(فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) فالجزء الذي كان مضيئاً من الأرض دار فانسلخ منه نهاره فهم مظلمون الآن.

قال الله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴿٣٨﴾﴾ [يس: 38]
هذه آية من آيات الله سبحانه، أن الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا فالأرض تدور، والقمر يدور حول الأرض في مدار، وهذه بعض الأشياء في كون الله العظيم الواسع الفسيح، كل شيء يجري في مداره، ويجري لمستقر له، الشموس والأقمار والنجوم والكواكب والمجرات كل شيء يجري ويدور حتى يأتي الأجل المحتوم وينتهي حينما يشاء الله

سبحانه، **(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)** وكأن لها نهاية، تجري وهي تحت عرش الرحمن تبارك وتعالى، تطلع على الناس بإذن الله سبحانه، وتغرب على الناس بإذن الله سبحانه، ففي صحيح مسلم **عن أبي ذر قال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا [يس:38]، قال: مستقرها تحت العرش).**
كرسي الله عز وجل فوق سماواته، وعرشه فوق ذلك، وإذا قورن كل ما في السماء وكل ما في الأرض بالعرش فهي كسبعة دراهم في ترس، فعرش الله عز وجل هو المحيط بهذا كله، فالشمس مهما جرت فهي تحت عرش الله سبحانه وتعالى.

والعرش إذا قورن بالكرسي فهو كالحلقة في فلاة، والله فوق عرشه سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى الخلائق عددا فالشمس مهما جرت والكواكب والنجوم مهما دارت فهي تحت عرش الرحمن سبحانه مسخرة بأمر الله تبارك وتعالى **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) [الحج:18]**، كل هؤلاء قد سخرهم الله سبحانه فأطاعوا ربهم، وسجدوا لله عز وجل طوعاً، وسجد كثير من الناس طوعاً، وكثير حق عليهم العذاب لما أبو أن يعبدوا الله سبحانه وتعالى.

فالشمس تطيع الله، وقد سخرها في الفلك، تشرق من مكان وتغرب من مكان، تخرج على الناس ولها مدار تجري فيه.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) أي: إلى أن يأتي وقت قرارها يوم القيامة حيث تشرق من مشرقها وتغرب من مغربها، فإذا جاءت العلامة الكبرى للقيامة يحبسها الله عند مغربها ولا يأذن لها في الخروج. [28]

---

[28] يقول الشَّيخ نديم الجسر في كتابِه قصَّة الإيمان : " لقد رأى العلماء أنّ لِهذه النجوم مواقع لا تتبدّل ولا تتغيّر ، فَظنّوها ثابتة ، وسمّوها (الثوابت) ومِنْها شَمسنا ، وَما هي بثوابت ، كما حقّق العلماء في هَذا العصرِ ، بلْ كلُّهَا تدور وتجري لمستقرّ لها ، في مجريين مُختلفين ، يتداخَل أحدهمَا في الآخر ، ولكنّ هذا الجَري يتمّ ويستمرّ في مواقع ومدارات لا تتبدّل ، ولا تتغيّر نسبة بعضها إلى بعض علَى كرّ الدهُور بذلِك النظام العجيبِ .. إنّ الشمس نجم من نجوم هذِه المجرّة .. إنّها تجري مثلَها ، وتسحب وراءها موكبها منَ السيّارات ومِن جملَتها الْأَرْض .. لقد عرف العلَماء مِنْ قَبل أنَّها تدور عَلَى محوَرها مرّة في مدّة 26 يوماً ، ولكِنّهم كانوا يحسبونها ثَابتة ، لا تنتقلَ ولا تَجري ، أَمّا اليوم فقد ثبتَ لهم ثبوتاً لا رَيْب فيه أنّها تجري ، وأَنّ النظام الشمسيَّ كلّه يجري في السَّماء ، كما تجري كلّ النجُوم في مجرّتنا وفيمَا وراءها جرياً عَجيباً لِمستقرّ لها ، كما يقول القرآن الكريم " [انظر قصَّة الإيمان ص/307/]

ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنها تستأذن ربها كل يوم عند المشرق وعند المغرب، فإذا كان يوم القيامة فإذا بالشمس تستأذن الله سبحانه فلا يأذن لها ويقال لها: اطلعي من حيث غربت، وهذه آية من آيات الله سبحانه، وهو علامة كبرى ليوم القيامة، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً.

عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها)، أصبحي، يعني: اطلعي في الصباح من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أتدرون متى ذلكم؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً)** .[29]

إذاً: الشمس تسجد تحت عرش الرحمن سبحانه في كل مطلع وكل مغرب، وطلوع الشمس في البلد الذي في المشرق يكون قبل طلوعها في البلد التي في المغرب، كأن الشمس في كل مطلع على بلد من البلدان ساجدة لله سبحانه مطيعة لأمر الله، حتى يأتي يوم القيامة، فإذا بالله سبحانه يأمرها أن ترجع وأن تطلع من حيث غربت، فتطلع الشمس من مغربها.

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) أي: طلوع الشمس من مشرقها وغروبها من مغربها آية من الآيات العظيمة، يعرف ذلك من يدرس علوم الفلك، فيرى كيف تجري الشمس، وكيف تدور هذه الأرض، وكيف تجري الكواكب والنجوم.

كل في فلك أي مدار في السماء لا يصطدم مع الآخر، ولا شيء يمنعها إلا قدرة الله سبحانه وتعالى.

---

[29] رواه البخاري في كتاب :بدء الخلق باب :ما جاء في قول الله تعالى ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ الحديث رقم: 3199

قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴿٣٩﴾﴾ [يس: 39]

(قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) حدّدنَا سيره في منازل ، والتقدير : يطلق على جعل الشيء بقدْر ونظام محكم ، ويطلق على تحديد المقدار ممّا تطلب معرفة مقداره ، كتقدير الأوقات والكميّات من الموزونات والمعدودات ، وكلا الإطلاقين مراد هنا.

والمنازل جمع منزلة ، وهي المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة .

(كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) العرجون: هو عذق النخلة الأحمر الذي فيه البلح، والعرجون لو تتركه فترة حتى ييبس يزداد انحناؤه ويصفر لونه.

وكذلك القمر يصير كالعرجون القديم قبل أن يستتر في آخر الشهر، فهو في نصف الشهر يكون مكتملاً، ثم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى يصير كالعرجون القديم.

والمعنى: كما أن الشمس تجري إلى مستقرها كذلك القمر قدر الله عز وجل له منازل، أي: جعل له منازل ينزل فيها حتى عاد كالعرجون القديم.

قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴿٤٠﴾﴾ [يس: 40]

في الماضي لم يعرفوا مدار أحدهما فهم يرونها في الفضاء فقط، لكن علماء الفلك الآن حددوا المدار الذي تبتدئ منه الشمس، ومستحيل أن يتقابل مدار الشمس مع مدار القمر في يوم من الأيام من أجل أن تدرك هذا القمر أو تلمسه.

(ولا الليل سابق النهار) ولكن الليل في مكان والنهار في مكان آخر، يتواليان على الكرة الأرضية، لا الليل سيجري فيدفع النهار ويسبقه، ولا النهار يسبق مع الليل، ولكن كل في فلك يسبحون.

(فِي فَلَكٍ) قال ابن عاشور: وسمى العرب تلك الطرائق أفلاكا وأحدها فلك اشتقوا له اسما من اسم فلكة المغزل، وهي عود في أعلاه خشبة مستديرة متبطحة مثل التفاحة الكبيرة تلف المرأة عليها خيوط غزلها التي تفتلها لتديرها بكفيها فتلتف عليها خيوط

الغزل، فتوهموا الفلك جسما كرويا وتوهموا الكواكب موضوعة عليه تدور بدورته ولذلك قدروا الزمان بأنه حركة الفلك.

وسموا ما بين مبدأ المدتين حتى ينتهي إلى حيث ابتدأ دورة الفلك، ولكن القرآن جاراهم في الاسم اللغوي لأن ذلك مبلغ اللغة وأصلح لهم ما توهموا بقوله: يسبحون، فبطل أن تكون أجرام الكواكب ملتصقة بأفلاكها ولزم من كونها سابحة أن طرائق سيرها دوائر وهمية لأن السبح هنا سبح في الهواء لا في الماء، والهواء لا تخطط فيه الخطوط ولا الأخاديد. [30]

إذن الفلك هو المدار المفروض (المقدّر) الذي يدور فيه الكوكب ، ويسير سيراً مطّرداً لا يحيد عنه ، ويطلق على قبّة السماء التي هي مجتمع الأفلاك .

(يَسْبَحُونَ) يسيرون ويدورون .

والمعنى: وكل هذه الأجرام التي خلقها الله سبحانه في فلك سباحة، وهذا التعبير أعظم وأجمل من أن يقول: يجرون؛ لأن فيها معنى الجري والدوران فقط، والسباحة تدل على أن ما فوقه وتحته فراغ، كالإنسان عندما يدخل في الماء لا يعوقه شيء لا من فوق ولا من تحت، كذلك هذه الشمس وهذا القمر والأجرام كلها تسبح في هذا الفضاء، والإنسان لا يدري كيف تسبح إلا بقدرة الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) كلمة ذرية مأخوذة من الذر، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: **(أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ)** فهنا ذكر، **(ذرأ)** أي: بث ونشر وخلق، فالذرية هنا بمعنى المخلوقين.

قال ابن عاشور: ولما كانت ذريات المخاطبين مما أراد الله بقاءه في الأرض حين أمر نوحا بصنع الفلك لإنجاء الأنواع وأمره بحمل أزواج من الناس هم الذين تولد منهم البشر بعد الطوفان نزّل البشر كله منزلة محمولين في الفلك المشحون في زمن نوح، وذكر الذريات يقتضي أن أصولهم محمولون بطريق الكناية إيجازا في الكلام،

---

[30] تفسير التحرير والتنوير(26/23)

وأن أنفسهم محمولون كذلك كأنه قيل: إنا حملنا أصولهم وحملناهم وحملنا ذرياتهم، إذ لولا نجاة الأصول ما جاءت الذريّات، وكانت الحكمة في حمل الأصول بقاء الذريات فكانت النعمة شاملة للكل، وهذا كالامتنان في قوله: **(إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة)** [الحاقة: 11، 12]

وضمير ذرياتهم عائد إلى ما عاد إليه ضمير لهم أي العباد المراد بهم المشركون من أهل مكة لكنهم لوحظوا هنا بعنوان كونهم من جملة البشر، فالمعنى: آية لهم أنا حملنا ذريات البشر في سفينة نوح وذلك حين أمر الله نوحا.[31]

الفلك: السفينة، **المشحون:** الممتلئ، سفينة نوح كانت ممتلئة من الإنس والطير وممن شاء الله عز وجل.

قال ابن عثيمين : {ذُرِّيَّتَهُمْ} أي: آباءهم الأصول، فجعل المراد بالذرية هنا الأصول، يعني الآباء، مع أن المعروف في اللغة العربية، أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}**[سورة الحديد، الآية: 26.] والمؤلف رحمه الله ومن ذهب مذهبه في تفسير الآية يقول: إن الذرية لفظ مشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من ذرا، والذر كائن للأصول والفروع، ثم يقولون أيضًا: إن سياق الآية يدل على ذلك **{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ}** لأن ذريتهم الصغار الموجودون معهم إذا حملوا هم، فسيحملون معهم في الفلك، وإن كان المراد بالذرية من يأتي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟ إذن يتعين أن يكون المراد بالذرية الأصول، لأن الصغار المشهودون حملهم حمل لآبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يحملون إلا مع آبائهم، والصغار غير المشهودين، الذين يأتون فيما بعد، لا يكونون آية لمن لم يشاهدها، فتعين أن يكون المراد بالذرية الآباء.
وهذا الذي ذهب إليه المؤلف -رحمه الله تعالى- يوافق ظاهر الآية، لكنه يخالف ما كان معهودًا في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالضمير هنا الجنس لا العين.

والمعنى **{ذُرِّيَّتَهُمْ}** أي: ذرية جنسهم، كنوح عليه الصلاة والسلام، من جنسنا آدمي بشر، فحمل الله ذريته في الفلك المشحون، قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية، قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ }** **{جَعَلْنَاهُ}** أي: جنس الإنسان وليس عينه؛ لأن الذي جعل نطفة ليس آدم الذي خلق من

---

(31) تفسير التحرير والتنوير (27/23).

سلالة من طين، ولا يمكن أن يكون نطفة في قرار مكين، بل غيره بلا شك، فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: **{ذُرِّيَّتَهُمْ}** إلى الموجودين باعتبار الجنس، فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح؛ لأنه بشر وآدمي، وذريته هي المحمولة، فيكون المعنى: أن خلقنا ذريتهم، أي: ذرية جنسهم، وهو نوح عليه الصلاة والسلام حملت ذريته في الفلك المشحون، وخلق لهم من مثله ما يركبون، وهذا قريب جدًّا ولا يخالف ظاهر الآية، ويشير إلى أن هذه السفينة جعلت آية لمن بعد نوح عليه الصلاة والسلام يعتبرون بها ويصنعون مثلها قوله تعالى في سورة القمر: **{وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ }**. فالمراد بالذرية هنا ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، وأضيفت إلى هؤلاء باعتبار الجنس يعني (حملنا الذرية من جنسهم في الفلك المشحون) وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ولا يأباه السياق. [32]

فالمعنى: لو نظروا لعرفوا أننا حملنا آبائهم الأولين الذين كانوا مع نوح في الفلك الذي ما كانوا يعرفون كيف يصنع حتى صنعه نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

فكان قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله سبحانه يمرون بنوح ويسألونه: ما هذا؟ يقول: فلك، فيقولون: وما تفعل بها؟ قال: تحمل على الماء، قالوا: أي ماء ونحن في صحراء؟ فكانوا يستهزئون به، قال: **(إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) [هود:38-39]**

فصنع هذا الفلك، ولم يكن نوح نجاراً متخصصاً في صنع السفن، وإنما علمه الله [33]**(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ) [المؤمنون:27]**

ولما جاء أمر الله أمر السماء أن تفتح ماءها على الأرض، وأن تخرج الأرض ماءها، وانطبق ماء السماء على ماء الأرض، وأغرق الله الأرض ومن عليها، ونجى نوحاً ومن معه في فلك يحمل فيها من كل ما خلق الله سبحانه وتعالى زوجين اثنين ذكراً وأنثى، ولم يعش فوق الأرض إلا من كان في هذه السفينة.

---

[32] تفسير سورة يس لابن عثيمين 151،152

فآية من آيات الله عز وجل أنه جعلكم ذرية هؤلاء، فتذكروا نعمة الله عز وجل على آبائكم أن أنجاهم فكنتم أنتم أولادهم وأرسلنا إليكم من يدعوكم إلى الله لتؤمنوا، فاحذروا أن يصنع بكم مثل ما صنع بقوم نوح.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴿٤٢﴾﴾ [يس: 42]

أي: وخلق لهم من مثل هذه السفن ما يركبون من سيارات وطائرات ومركبات فضائية في البر والبحر والجو، فخلق الله عز وجل من مثل ذلك ما يركبه الإنسان في كل زمان ومكان.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴿٤٤﴾﴾ [يس: 43-44]

(لا صريخ) الصريخ بمعنى المغيث، وسمي المغيث صريخًا؛ لأن عادة الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغيث، ومنه حديث غزوة بدر أن أبا سفيان بعث صارخًا إلى أهل مكة يستغيثهم.

والمعنى: فلا منقذ ولا مغيث لهم، فلا يوجد من ينقذ هؤلاء إذا أردنا أن نهلكهم ونغرقهم ، والإنسان إذا تطاول على الرب سبحانه أرسل إليه من يقصمه.

(ولا هم ينقذون) لا ينقذهم أحد إلا رحمته، فلا أحد يجيرهم ولا يرد عليهم ولا ينقذهم. نحن أركبناهم هذه السفينة، وعلمناهم كيف يصنعون الفلك، فلما صنعوا الفلك اغتروا وعبدوا غير الله تبارك وتعالى، وإن نشأ نغرق هؤلاء فلا يوجد لهم من يغيثهم إذا أغرقناهم.

والمعنى: لأجل رحمة من الله سبحانه تركنا هؤلاء، فلم أستأصلهم بعذاب وأخرناهم إلى يوم القيامة لعله يخرج من أصلابهم من يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ومتعناهم إلى حين حتى يأتي الأجل، ثم عذاب رب العالمين أو رحمته سبحانه.

آية انشقاق القمر:

رواد الفضاء بوكالة ناسا الأمريكية عندما تكلموا عن الصعود للفضاء، وقال لهم الناس: هذه الأموال الضخمة التي تصرفونها على القمر اصرفوها على الفقراء، قالوا: نحن

طلعنا القمر واكتشفنا منه معلومات تساوي ما أنفقناه حتى نصل إليه ، فقيل لهم: ما أهم حاجة وصلتم إليها؟ قالوا: وصلنا لحاجة عجيبة جداً، اكتشفنا أن هذا القمر انشق يوماً من الأيام، وقد قال الله عز وجل ذلك في كتابه من ألف وأربعمائة عام، قال: **(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) [القمر:1]**

وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح: **أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبياً فأرنا آية. فواعدهم ليلة، وأراهم انشقاق القمر إلى فلقتين، فإذا بهم يرون نصف القمر أمام الجبل والنصف الآخر وراء الجبل، قالوا: سحرتنا، فقال بعضهم لبعض: إن كان سحرنا فلن يسحر غيرنا، فلننتظر إذا جاء ركب ونسألهم، وانتظروا أياماً وجاء ركب وسألوهم: الليلة الفلانية هل أحد منكم رأى القمر؟ قالوا: نعم. وما رأيتم؟ قالوا: رأيناه انشق ثم رجع كما كان.**

هذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم فلم يصدق هؤلاء الكفار، وجاء رواد الفضاء في عصرنا الحديث ليقولوا: هذا القمر انشق.

من أين عرفتم؟ قالوا: رأينا في صور القمر فلق كبير، فعرفنا أنه انفلق في يوم من الأيام، ورجع مرة ثانية لمكانه، لكن أثر الشق واضح في القمر كله، هؤلاء يصدقون ما يقوله النبي صلوات الله وسلامه عليه ، صدق ربنا القائل: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت:53]، هذه آية من آيات الرب سبحانه وتعالى.

(إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) أي لا أحد ينقذهم وينجيهم إلاّ بتقديرنا وإرادتنا ، أن يبقوا أحياء إلى استيفاء أعمارهم ، وانقضاء آجَالهم .

المعنى الإجمالي للآيات :

1-ومن دلائل قدرة الله تعالى على البعث والنشور ، هذه الأرض الميتة ، التي لا نبات فيها ، أحياها الله بإنزال الماء ، وأخرج منها أنواع النبات مما يأكل الناس والأنعام ، وجعل فيها بساتين من نخيل وأعناب ، وفجر فيها من عيون المياه ، التي تجري على وجه الأرض ، ومن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد الممات .

2-كلّ ذلك ؛ ليأكل العباد من رزق الله وثمره ، وما ذلك إلاّ من رحمة الله تعالى بهم ، وفضله عليهم ، لا بسعيهم ولا بكدّهم ، ولا بحولهم أو قوّتهم ، أفلا يشكرون الله سبحانه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ؟

3-فتنزه الله العظيم الذي خلق هذه الأصناف جميعها من أنواع نبات الأرض ، ومن أنفسهم ذكوراً وإناثاً ، ومما لا يعلمون من المخلوقات الأخرى، لقد انفرد الله سبحانه بالخلق والحكمة وبديع الصنع، فلا ينبغي أن يشرك به غيره .

4-ومن العلامات الدالة على توحيد الله تعالى وكمال قدرته : هذا الليل عندما ننزع منه النهار ، فيعمّ الظلام حياة الناس .

5-والشمس آية لهم عظيمة ، تجري في فلك السماء لمستقر لها ، قد قدّره الله لها ، فهي لا تعداه ولا تقصر عنه ، ذلك تقدير العزيز الذي لا يغالب ، العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء .

6-والقمر آية من آيات الله في خلقه ، قدره منازل كل ليلة : يبدأ هلالاً ضئيلاً ، حتى يكمل قمراً مستديراً ، ثم يرجع ضئيلاً مثل عذق النخلة المتقوس في الرقة والانحناء.

7-ولكلٍّ من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وسائر النجوم والكواكب وقت قدره الله لها لا تتعداه ، ولا تقصر عنه ، فلا يمكن للشمس أن تلحق القمر ، فتمحو نوره ، أو تغير مجراه ، ولا يمكن لليل أن يسبق النهار ، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته المقدّر بدقّة ، والغرض من ذلك التذكير بنعمة الليل ونعمة النهار ، فإنّ لكليهما فوائد للناس ، فلو طغى أحدهما على الآخر ، فاستقرّ في الأفق لتعطّلت منافع الناس والحيوان ، ولاختلّ نظام الكون ، وكلٌّ من الشمس والقمر والكواكب يجرون في فلك إلى أجل معلوم.

8-ومن الأدلّة والبراهين على أن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة ، لأنّه المنعم بالمنعم كلّها ، أنّا حملنا المؤمنين ، وهم أصول هؤلاء المشركين ومن

على ظهر الأرض في سفينة نوح ، وملأناها بأجناس المخلوقات ، ونجّيناهم من الطوفان لتستمرّ الحياة في الأرض بعد هلاك الكافرين .

9-وخلقنا لهؤلاء المشركين وغيرهم مثل سفينة نوح ، من السفن وغيرها من المراكب التي يركبونها ، وتحقّق لهم مصالحهم ، وتبلغهم أوطانهم .

10-وإن نشأ نغرقهم ، فلا يستطيعون النجاة ، ولا يجدون من يغيثهم من الغرق ؛ إلاّ أن نرحمهم فننجيهم ونمتّعهم إلى أجل معلوم ؛ لعلّهم يرجعون ، ويستدركون ما فرّطوا فيه .

أهم ما يستفاد من الآيات:

1 ـ من الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده وكمال قدرته على البعث وإحياء الموتى وغير ذلك : إحياء الأرض الهامدة بالنبات الأخضر ، وإخراج الحب منها ، الذي هو قوام الحياة وأساس القوت والمعاش .

2 ـ ومن الأدلة أيضاً خلق البساتين في الأرض وما فيها من نخيل وأعناب ، وتفجير الينابيع فيها للأكل من ثمر ماء العيون ، أو من ثمر الجنات والنخيل ، وممّا عملته أيدي الناس من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما اتخذوا من الحبوب كالخبز وأنواع الحلويات .

3 ـ وفي الآية : (**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**) إشارة واضحة مرغّبة بإدخال الصناعة على الزراعة ليعظم خيرها ، ويعمّ نفعها ، وتفتح للناس باباً للارتزاق واسعاً ، إذ إنّ الله تعالى قد امتنّ على عباده بما يأكلون ممّا تخرج الأرض ، وما علّمهم ممّا تصنعه أيديهم ، ولولا أنّ ذلك ممّا يرغبه لعباده ، ويرشدهم إليه ممّا يصلح معاشهم ، ويديم نعم الله عليهم ، لما ذكره في معرض ذكر النعم والامتنان بها ، وهذه النعم تستوجب شكر الخالق المنعم المتفضل ، وشكره يكون بعبادته سبحانه ، والإذعان لسلطانه وإرادته .

4 ـ يجب تنزيه الخالق عما لا يليق به ، والبعد عن صنيع الكفار الذين عبدوا غير الله سبحانه ، مع ما رأوا من نعم الله وآثار قدرته .

5 ـ آثار قدرة الله ومظاهرها في العالم كثير، منها خلق النبات والثمار ، المختلفة الألوان والطعوم ، والأشكال والأحجام ، صغراً وكبراً . ومنها خلق الأولاد والازواج أي ذكوراً وإناثاً ، ومنها خلق أصناف أخرى لا يعلمها البشر في البر والبحر ، والسماء والأرض ، وإذا كان الله تعالى قد انفرد بالخلق ، فلا ينبغي أن يشرك به .

6 ـ ومن العلامات الدالة أيضاً على توحيد الله تعالى وقدرته ، ووجوب عبادته : تعاقب الليل والنهار وما يتبعهما من ظلمة وضوء لتحقيق مصالح العباد ، وضبط السنين والحساب ، وجريان الشمس لمستقر لها ، وهو محورها أو نهاية سيرها يوم القيامة ، وتقدير القمر منازل ، هي ثمانية وعشرون منزلاً ، ينزل القمر كلّ ليلة بمنزل منها ، فإذا صار في آخرها ، عاد إلى أولها ، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ، ثمّ يستتر ، ثمّ يطلع هلالاً ، فيعود إلى قطع الفلك على المنازل .

7 ـ ومن آيات الله سبحانه جعل مدار مستقل ، لكلّ من الشمس والقمر والأرض ، فلا يدخل أحدها على الآخر ، كما لا يتجاوز مساره المرسوم .

8 ـ ومن دلائل قدرة الله ورحمته : حمل ذريّة القرون الماضية والحاضرة والمقبلة في السفن المملوءة بالسلع والأمتعة ، وخلق وسائط أخرى للركوب مماثلة للسفن ، وهي الإبل سفن الصحراء والبراري ، ووسائل النقل الحديثة في البرّ والجوّ من سيارات وقطارات وطائرات ونحوها ، وهذه آية من آيات الله المشهودة في كلّ وقت ، فيها عبرة لكلّ ذي قلب .!

9 ـ والله قادر على إغراق ركاب السفن في البحار ، فلا يغيثهم أحد ، ولا يجيرُهم ، ولا ينقذهم ، ولكن رحمة الله تعالى اقتضت إبقاءهم وإنقاذهم ليتمتعوا بمتع الحياة الدنيوية إلى آجالهم المرسومة ، وأعمارهم المحدودة ، ثمّ يكون جزاؤهم عند الله على ما قدّموا في هذه الحياة .

****

الفصل الرابع

حوار مع الكافرين والمصير المنتظر

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٥٤﴾﴾ [يس: 45-54]

الفصل الرابع

حوار مع الكافرين والمصير المنتظر

يقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٤٥﴾﴾ [يس: 45]

(اتّقُوْا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) ما سبقكم في الدنيا من أحوال الأمم السابقة كيف أهلكنا قوم نوح وعاد وثمود أصحاب الأيكة وقوم فرعون ولوط، هذا ما بين أيديكم من السابقين قبلكم..

(وَمَا خَلْفَكُمْ) أي: ما وراءكم من غيب لا يعلمه إلا الله سبحانه بعد ما تموتون وينكشف أمامكم الحجاب، وترون عذاب الله سبحانه وتعالى

وقيل : مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ : ما ينتظركم من عَذاب الآخرة ، وَمَا خَلْفَكُمْ : من أحوال الأمم في الدنيا ، وكلا المعنيين صحيح .

والمعنى: وإذا قيل للكفار: اتقوا النقم التي نزلت في السابقين، واحذروا من غضب الله عز وجل وما أعده للكافرين، واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية من الإيمان والعمل الصالح لعل الله عز وجل يرحمكم ؛ كان جواب هؤلاء أنهم لا يؤمنون.

قوله تعالى:﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴿٤٦﴾﴾ [يس: 46]

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ) قرآنية تتلى عليهم، أو آية حسية من آيات الله سبحانه مرئية .

(إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) غيرَ مبالين ، ولا ملتفتين .

والمعنى: فكأن الجواب إذا قيل لهم **(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: 45]**: أعرضوا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأعرضوا عمن يدعونهم إلى الله سبحانه، وإذا رأوا الآيات البينات لم يزدهم ذلك إلا استكباراً ونفوراً

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٤٧﴾﴾ [يس: 47]

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا) إذا قيل للكافر: أنفق لله سبحانه فقد أعطاك مالاً، فلم لا تعط المساكين والفقراء؟

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) فيجيب هؤلاء الكفار أنحن نطعم هؤلاء؟! إذا أراد ربنا أن يؤكلهم أكلهم، ونحن لماذا نرزقهم وأنتم تقولون: ربكم هو الرزاق سبحانه وتعالى، فلو أراد أن يتركهم تركهم.

فكأنهم يحتجون بالقدر، والكلام صحيح والمراد به باطل، مثلما قال الكفار: **(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)**[النحل:35] ، فاحتجوا بالقدر على الله سبحانه وتعالى.

ونقول: صحيح لو شاء الله لهداكم أجمعين، ولكن هل أمركم الله عز وجل أن تحتجوا بقضائه وقدره، أم أمركم بما تقدرون عليه من عمل؟

أنت تنفق مالك في هذا المجال وفي هذا المجال،ِلم لم تقل: لو شاء الله ما أنفقت، أو لو شاء الله كان فعل كذا؟
أنت تجوع، فتنفق مالك لكي تأكل، فلماذا لا تحتج بالقدر في هذا الشيء وتقول: لو شاء الله لأطعمني؟

هل منهم من يقول هذا الشيء؟ كلا؛ فإنهم يحتجون بالقدر فيما يريدون ويتركون الاحتجاج فيما لا يريدون، فهم كذابون يتكلمون على الله بما لا يعرفون.

قوله تعالى:﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴿٥٠﴾﴾ [يس: 48-50]

(مَتَى هَذَا الْوَعْدُ): متى يجيء البعث ويتحقّق ، أو يحلّ العذاب ، وهذا من عنادهم وشدّة تكذيبهم .

(مَا يَنظُرُونَ إِلَّا) بمعنى: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهي النفخ في الصور حين يأمر الله عز وجل إسرافيل أن ينفخ في الصور، فينفخ نفختين، نفخة الإماتة ثم نفخة البعث من القبور.

(صَيْحَةً وَاحِدَةً): النفخة الأولى وهي نفخة الموت .

والمعنى: إنهم يظنون أن يوم القيامة شيء صعب، ولا يعلمون أنه صيحة واحدة بنفخ في الصور يهلك بها جميع هؤلاء، فلا يقدرون على الرجوع إلى أهلهم، ولا يقدرون على حياتهم بعد ذلك إلا أن يحييهم الله للبعث والنشور.

(وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) أصلها يختصمون، يعني: يختصمون في أمر الدين والدنيا ويكذب بعضهم بعضاً، ويخاصم بعضهم بعضاً، وهم في وسط هذا الشغل جاءت الصيحة فأخمدت الجميع .

(فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) لا يقدر أن يوصي بعضهم بعضاً بالمال والأولاد.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعا: **(ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه)** ذهب ليشتري قماشاً فيخرج إلى السوق ويتبايع هو والتاجر، وتقوم الساعة على هذه الصورة، فلا يطوي هذا الثوب ولا يستلم هذا المال. قال صلى الله عليه وسلم: **(ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه)** حلب الرجل ناقته وأخذ اللبن لكي يشربه، وقبل أن يشرب هذا اللبن تقوم. **(ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه)** الحوض الذي يسقي فيه الغنم والإبل أحضرت له الحجارة وملأه ماء وأتى بالإبل لتشرب، فتقوم الساعة قبل ذلك. **(ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)** تقوم الساعة والناس في انشغال، وتأتي الساعة عليهم وهم في انشغال عن الآخرة والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: 51-52]

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) الصور: البوق الذي يحمله إسرافيل الملك الموكل بالنفخ، فينفخ فيه بإذن الله سبحانه وتعالى؛ فيصعق من في السموات ومن في الأرض، ثم يؤمر فينفخ

فيه نفخة أخرى فإذا هم قيام ينظرون. نفختان ذكرهما الله عز وجل في كتابه: **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ [الزمر:68]**، ينفخ نفخة الإماتة فيموت من في هذا الكون، ثم ينفخ نفخة أخرى لإحياء الموتى، ونفخ إسرافيل في الصور سبب، ولكن الذي يحيي ويبعث الناس ليجازيهم هو الله تبارك وتعالى.
ومنذ خلق الله تبارك وتعالى إسرافيل وهو معه هذا الصور - وهو البوق الذي ينفخ فيه- ينظر إلى عرش الرحمن ينتظر متى يؤمر بالنفخ في الصور، يخاف أن ينشغل عن ذلك، فهو في نظر دائم متعلق بعرش الرحمن سبحانه حتى يأمره الله سبحانه في وقت حدده يعلمه الله ولا يعلمه غير الله سبحانه وتعالى.

والمقصود هنا النفخة الثانية ، وهي نفخة البعث .

(الْأَجْدَاثِ) جمع جَدَث وهو لفظ يدل على موضع دفن الإنسان أي الحفرة التي يُوضع فيها الميت، وليس مجرد المكان العام للقبور.

واستخدام لفظ "الأجداث" في سياق البعث والخروج من القبور له دلالة قوية، لأن الجَدَث يُعطي شعورًا بالمكان الضيق والدفين الذي يُنتزع منه الميت يوم القيامة.

فيُصور الخروج منه كأنه انفجار أو انبعاث مفاجئ، بخلاف كلمة "قبر" التي تحمل هدوءًا وسكونًا.

(يَنسِلُونَ) نَسَلَ:في اللغة :أسرع في المشي بخفة، أو خرج خروجا سريعًا خفيفًا.

ويُقال: "نسل فلان من المكان" أي :خرج منه سريعًا دون أن يُشعر به.

والمعنى: وبعد أن نأمر إسرافيل بالنفخ في الصور فإذا هم من قبورهم يخرجون وإلى ربهم ينسلون، أي: يمشون مشياً مسرعاً، ويخرجون من القبور ويقومون مسرعين متوجهين إلى مكان اجتماعهم وحشرهم وحسابهم.
(صَيْحَةً وَاحِدَةً): هي نفخة البعث . وفي ذلك تهوين لأمر البعث والحشر ، وأنّ الله غنيّ عن الأسباب المألوفة في الدنيا .

(مُحْضَرُونَ) : حاضرون مجموعون للحساب والجَزاء .

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا) : يدعون بالويل، يعني: يا ويلنا احضر، والويل الهلاك، كأنهم يدعو أحدهم على نفسه بالهلاك، يقول: يا ويل احضر، يا هلاك احضر، تعالى الآن خذني. وهذه الكلمة فيها ما فيها من الرعب الذي يخرجون به من قبورهم.

(مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) من قبورنا ، وهذا كلام الكفار حين يبعثون ويعلمون أن مصيرهم إلى النار، فيقولون: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا .

والقبر مرقد لصاحبه، وهو إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النيران، فهم كانوا يعذبون في قبورهم ولكن الله سبحانه حين يأمر بالنفخ في الصور النفخة الأولى فيقضي على جميع الخلق بالموت، ويقضي على أهل القبور بالرقاد، وعندما يرقدون يرفع عنهم العذاب في هذه الفترة ما بين النفخة الأولى والنفخة الثانية.

في الصحيحين **عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بين النفختين أربعون. قيل: أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قيل: أربعون شهراً؟ قيل: أبيت. قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت)** راوي الحديث أبو هريرة رضي الله عنه لا يدري أربعون يوماً أو شهراً أو سنة، قال: (أبيت) يعني: أن أتكلم فيما ليس لي به علم، والذي أخبر هو النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: **(ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)**، الإنسان يبلى تماماً في قبره إلا آخر عظمة في العمود الفقري، وهي مكان الذيل من الحيوان، وهي كالبذرة للإنسان ينبت منها يوم القيامة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ينزل الله عز وجل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل)** البقل: النبات الذي ينبت ساقه في الأرض وأوراقه عليها مثل الجرجير وغيره مما يخرج على الأرض، ينزل من السماء ماء وتنبت البقول وينبت الإنسان كما ينبت هذا النبات، ينزل من السماء ماء فيجمع الله عز وجل الإنسان من كل مكان وينبت ويخرج مرة أخرى ويركب الخلق يوم القيامة من عجب الذنب.

ويجابون: (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وصدق المرسلون) لم يتبين لهم صدق المرسلين إلا حين جاءتهم الوفاة، ودخلوا قبورهم، فلما بعثوا من قبورهم تبين لهم أن الرسل كانوا على حق في حين لا ينفع ما تبينوه الآن، فقد صاروا إلى الآخرة وليسوا في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٥٤﴾﴾ [يس: 53-54]

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)(إن) بمعنى: (ما) أي ما كانت إلا صيحة واحدة ، فهي صيحة واحدة ينفخ في الصور فيهلك الجميع، وصيحة واحدة أخرى فيبعث الجميع، ليس كل إنسان يحتاج لأن ينفخ له في الصور بمفرده، إن كان الرب سبحانه أماتهم فرادى، وكل إنسان جاءته الوفاة في وقته، ولكن لما قضى بالنفخ في الصور ليهلك جميع من فوق الأرض كانت نفخة واحدة، ولما أمر بإحياء الجميع ممن ماتوا قبل ذلك ومن ماتوا بهذه النفخة كانت صيحة واحدة، لبيان أن الله لا يعجزه شيء.

(فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) محضرون أمام ربهم سبحانه، يقفون للجزاء، ليأخذ كل منهم صحيفة عمله، منهم من يأخذها باليمين، ومنهم من يأخذها باليسار من وراء ظهره، لا أحد يفلت، لا أحد يهرب، لا أحد يذهب بعيداً ويشرد عن هؤلاء، الجميع محصورون مجموعون لله رب العالمين **(فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [يس:54]**

ما هو الصور :

الصور في لغة العرب القَرْن ، وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصور ، ففسره بما تعرفه العرب من كلامها فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم **فقال : " ما الصور ؟ قال : الصور قرن ينفخ فيه "** قال الترمذي فيه : حديث حسن صحيح .

النَافخ في الصُّور

اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام ، وقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن صاحب الصور مستعد دائماً للنفخ فيه منذ أن خلقه الله تعالى ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن طَرْف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش ، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طَرْفه **(كأن عينيه كوكبان دُرِّيان)** قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف أنعم ،

وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ ، فينفخ . قال المسلمون : فكيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا " رواه الترمذي وحسنه الالباني .

اليَوم الذي يكون فيه النفخة

تقوم الساعة في يوم الجمعة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خُلِق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة)**

كم مَرَّة ينفخ في الصُّور ؟

الذي يظهر أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين ، الأولى يحصل بها الصعق ، والثانية يحصل بها البعث ، قال تعالى : **(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ)** [الزمر : 68] .
وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة ، والنفخة الثانية بالرادفة ، قال تعالى : **(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ـ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)** [النازعات : 6-7] .

وفي موضع آخر سمى الأولى بالصيحة ، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية ، قال تعالى: **(مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ـ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ـ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ)** [يس : 49-51] .

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين :

ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما بين النفختين أربعون ". قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت "
وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ، ورفع ليتاً (الليت : صفحة العنق ، وإصغاؤه : إمالته) ، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض

إبله ، قال : فيصعق ، ويصعق الناس ، ثم يرسل الله – أو قال : ينزل الله مطراً ، كأنه الطَّلُّ ، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون "

وقد رجح هذا الذي دلت عليه هذه الآيات والأحاديث التي سقناها جمع من أهل العلم ، منهم القرطبي ، وابن حجر العسقلاني.

وذهب جمع من أهل العلم إلى أنها ثلاث نفخات ، وهي نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

وممن ذهب هذا المذهب ابن العربي ، وابن تيمية ، وابن كثير ، والسفاريني .

وحجة من ذهب هذا المذهب:

1- أن الله ذكر نفخة الفزع في قوله : **(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ)** [النمل : 87] .

2- كما احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث ، كحديث الصور، وهو حديث طويل ، أخرجه الطبري ، وفيه : **" ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام لرب العالمين "**.

وقد رد عليهم أصحاب الرأي الأول:

1- أما استدلالهم بالآية التي تذكر نفخة الفزع فليست صريحة على أن هذه نفخة ثالثة ، إذ لا يلزم من ذكر الحق تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب من في السماوات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة ، فالنفخة الأولى تفزع الأحياء قبل صعقهم ، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم .

وجاء في التذكرة للقرطبي : " ونفخة الفزع هي نفخة الصعق ، لأن الأمرين لازمين لها ، أي : فزعوا فزعاً ماتوا منه "

2- أما حديث الصور فهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى ، ونقل تضعيفه عن البيهقي .

الذين لا يُصعقون عند النفخ في الصّور

أخبرنا الباري جلَّ وعلا أن بعض من في السماوات ومن في الأرض لا يُصعقون عندما يُصعق من في السماوات ومن في الأرض **(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ)** [الزمر : 68] .

وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق تبارك وتعالى بالاستثناء في قوله: (**إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**).

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : " وأما الاستثناء فهو متناول لما في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت " مجموع فتاوى شيخ الإسلام : (261/4)

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله ، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد .

المعنى الإجمالي للآيات :

1-وإذا قيل لهؤلاء المشركين : احذروا الآخرة وأهوالها ، ومصائب الدنيا وعقابها ، رجاء رحمة الله لكم ، أعرضوا ولم يستجيبوا ، وأصرّوا على ما هم فيه من كفر وطغيان .

2-وما تجيء هؤلاء المشركين من حجّة بيّنة واضحة من عند ربهم ، لتهديهم للحقّ ، وتبيّن لهم صدق الرسول ﷺ ، إلاّ جحدوا بها ، وأعرضوا عنها .

3-وإذا قيل لهم : أنفقوا من الرزق الذي منّ الله به عليكم ، قالوا مكابرين للحقّ ، معاندين للمؤمنين : كيف نرحم ونطعم من لو يشاء الله رحمه وأطعمه ؟

4-فكما أنّهم أخلّوا بتعظيم الخالق ، وأداء حقّ العبوديّة لله فقد حرموا العطف والشفقة على الإنسانية ، وانعدمت عندهم عاطفة الرحمة بالمخلوقات ، فهم إذا دعوا إلى الإنفاق مما رزقهم الله بخلوا وتهكموا ، وجادلوا بالباطل وتهرّبوا ، وهو شأن البخلاء في كل عصر .

5-ويقولون للمؤمنين : لستم ـ أيها المؤمنون ـ فيما تقولون لنا إلا في ضلال واضح عن الحق ، إذ تأمروننا بذلك .

6-ويقولون للمؤمنين على وجه التكذيب والعناد والاستنكار : متى يكون البعث إن كنتم صادقين فيما تقولون عنه ؟

7-فيأتيهم الردّ من الله تعالى : ما ينتظر هؤلاء المشركون الذين يستعجلون بوعيد الله وعذابه إلاّ نفخة الفزع عند قيام الساعة ، التي تأخذهم فجأة ، وهم منهمكون في شؤون حياتهم يختصمون .

8-فلا يستطيعون عند سماع النفخ في الصور أن يوصوا أحداً بشيء ، كما لا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم .

9-وعندما ينفخ في الصور النفخة الثانية ، تردّ أرواحهم إلى أجسادهم ، فيخرجون من قبورهم سراعاً إلى ربهم .

10-ويقول عندئذ هؤلاء المكذبون بالبعث ـ نادمين متحسّرين ـ : يا حسرتنا ! ويا هلاكنا ! من أخرجنا من قبورنا ؟ فيأتيهم الجواب : هذا ما وعد الرحمن ، وأخبركم عنه المرسلون الصادقون .

11-فما كان البعث من القبور إلا نتيجة نفخة واحدة في الصور ، فإذا جميع الخلق ماثلون لدينا للحساب والجزاء ، وفي ذلك اليوم يتمّ الحساب بالعدل ، فلا تظلم نفس شيئاً بنقص حسناتها أو زيادة سيئاتها ، ولا يجزى أحد إلا بما عمل في الدنيا .

الدروس والعبر :

1 ـ كان الردّ الحاسم على استعجال الكفار قيام الساعة استهزاء أنها تأتي فجأة كلمح البصر أو هي أقرب ، وتحدث بنفخة واحدة هي نفخة إسرافيل في وقت يختصم الناس في أمور دنياهم ، فيموتون في مكانهم ، وهذه هي نفخة الصعق .

2 ـ من آثار الموت المفاجئ بتلك النفخة أنهم لا يتمكنون من العودة إلى ديارهم إذا كانوا خارجين منها ، ولا يستطيعون الإيصاء إلى غيرهم بما لهم وما عليهم

. وقيل : لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم .

3 ـ ثم تأتي النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور من القبور ، فهما نفختان ، لا ثلاث على الراجح من أقوال العلماء كما سبق.

4 يتعجب أهل البعث ويذهلون ويفزعون مما يرون من شدائد الأهوال فيتساءلون عمن أخرجهم من قبورهم ، مفضلين عذاب القبر ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد .

5 عندما تحدث النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ، يخرج الناس جميعاً مسرعين إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : **(مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) [القمر:8]**

****

الفصل الخامس

حال أهل الجنة وحال أهل النار

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ۝٥٨ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧﴾ [يس: 55-67]

الفصل الخامس

حال أهل الجنة وحال أهل النار

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس: 55]

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) كأنهم ملكوها، هذه الجنة جنتكم، هذه التي أعددناها لكم.

(فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) نعيم عظيم ، يشغلهم عمّا سواه ، أي: منعمون، يعني: نفوسهم طيبة منعمة بالجنة؛ قد شغلوا بما في الجنة من نعيم.

(فَاكِهُونَ) متنعمون متلذذون في النعمة التي تحيط بهم، مأخوذ من الفكاهة- بفتح الفاء- وهي طيب العيش مع النشاط، وسميت الفاكهة بذلك لتلذذ الإنسان بها، وكل أكل أهل الجنة فاكهة، لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه لا على سبيل الحاجة والضرورة، ففي الدنيا قد نأكل أحيانًا تفكهًا، وأحيانًا للحاجة، وأحيانًا للضرورة، أما في الجنة فكل ما نأكله للتفكه؛ لأنه ليس هناك ضرورة أو حاجة، ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحًا مثل العرق، أطيب من ريح المسك، وليس فيها بول أو غائط.

قال تعالى:﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس: 56-57]

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ) كل إنسان مع زوجاته في الجنة، له من الحور العين ما شاء الله تبارك وتعالى، كذلك زوجته التي كانت معه في الدنيا تكون من أجمل ما يكون في الجنة، فها هو وزوجه إذا دخلت معه الجنة كانوا منعمين.

(فِي ظِلالٍ) جمع ظِلّ ، وهو ما لا تصيبه الشمس ، والظلة: الشيء الذي يجعل فوق رأس الإنسان، والجنة ليس فيها شمس تحرق أهلها، ولكن فيها نعيم الزينة فيزين لأهل الجنة مثلما تجد في الأفراح يعمل للعروسة شيء فوق رأسها، ليس لأنه يوجد مطر، وإنما زينة للعرس، وزينة أهل الجنة أعظم من ذلك بكثير، شبهوا بالعروس في الدنيا؛ لأن العروس في الدنيا تتزين لزوجها، فهؤلاء في الجنة زينت لهم الجنة على ما نسمع هنا.

(عَلَى الأَرَائِكِ) الأرائك: جمع أريكة، وهو: الكرسي الكبير المتسع، أو العرش الذي يجلس عليه الملك، أو السرر في الحجال: جمع حجلة (يسمونه بمصر الناموسية). أي : بيوت عظيمة جميلة مزينة لأهلها.

(مُتَّكِئُونَ) يتكئ الإنسان أي: يجلس مسنداً ظهره ويده.

والإنسان المرفه يجلس متكئاً على اليمين أو الشمال يأكل، أما الجائع فهو مقبل على الطعام حامد لله سبحانه، شاكر له، لكن الإنسان البطر الذي عنده الأكل كثير يجلس هذه الجلسة، وهو في الدنيا ممنوع منها عند الطعام ، ولكن في الجنة اجلس كما شئت، اتكئ كما شئت، فالآن وقت الجزاء ووقت الثواب ووقت السرور والفرح فاجلس كما شئت.

(لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ) فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ليس محتاجاً إلى قطع الثمار من الأشجار ولكن يطلب ما يشاء وهو يأتيه، وإذا قطع الثمار من أشجار الجنة نبت مكانه غيره، فثمار الشجرة لا تنتهي، نعيم مقيم لا مقطوع ولا ممنوع.

(وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ) ، ما يتمنّونه ويشتهونه ويطلبونه من أنواع الملذّات والنعيم .

فيطلبون الشيء مهما عظم، فيعطيهم الله ما شاء من فضله ومن رحمته سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴿٥٨﴾﴾ [يس: 58]

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) وأعظم ما يتمنّون سلام الله تبارك وتعالى عليهم ، تكريماً لهم ورضواناً .[34]

والمعنى: يعطيهم الله تبارك وتعالى السلام والأمن، ويحييهم ربهم الحياة الطيبة والتحية العظيمة، سلام قولاً من ربكم سبحانه تبارك وتعالى، فيميز هذا التسليم بأنه قولاً من الله سبحانه سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ خالق مالك يملك كل شيء، رحيم بعباده تبارك وتعالى.

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف**

---

[34] وللمفسرين في إعراب قوله: سَلَامٌ أقوال منها: أنه مبتدأ خبره الناصب للفظ قَوْلًا أى: سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم. والمعنى: أن الله- تعالى- يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة في تكريمهم.

الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل وتلا النبي صلى الله عليه وسلم: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [يونس:26])

هذا أعظم ما يؤتاه أهل الجنة، لذة النظر إلى وجه الرب تبارك وتعالى، ويزيد على ذلك أن ينظروا إلى وجهه سبحانه وتعالى.
نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم ومعهم، وأن يرينا وجهه الكريم سبحانه في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، ونسأله أن يزيننا بزينة الإيمان، ويجعلنا هداة مهتدين.

قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: 59-62]

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) تميّزوا وانفردوا عن المؤمنين .

والمعنى: وقيل للمجرمين: تميزوا، تعالوا من هذه الناحية، يقال: ميزت الناس بعضهم عن بعض إذا فرقت بينهم، فيقال لهم: ابتعدوا عن المؤمنين، لستم معهم في الجنة، ولا لكم نور من نورهم، انحازوا إلى ذات الشمال، فيؤخذون إلى النار والعياذ بالله.

(أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) أجرموا في حق دينهم.. أجرموا في حق ربهم سبحانه.. أجرموا في حق المؤمنين.. أجرموا في حق نبيهم عليه الصلاة والسلام، فقيل لهم: انحازوا إلى هاهنا، اجتمعوا إلى النار والعياذ بالله.

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) والعهد بالشيء: الوصية به، والمراد به هنا: وصية الله- تعالى- للناس على ألسنة رسله، أن يخلصوا له العبادة والطاعة، وأن يخالفوا: ما يوسوس لهم به الشيطان من شرك ومعصية.

والمراد بعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويزينه لهم، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) عداوته ظاهرة بينة واضحة ، وقد أعذرنا إليكم فلا عذر يقبل منكم اليوم.

والمعنى: لقد عهدت إليكم- يا بنى آدم- عهدا مؤكدا على ألسنة رسلي، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته، وأن لا تتبعوا خطواته، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء.

(وَأَنِ اعْبُدُونِي) اعبدوا ربكم وحده لا شريك له.

(**هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**) يعني: طريق الله سبحانه طريق لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومن تابع دين الله سار إلى جنة الله سبحانه.

والإشارة في قوله: (هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ) تعود إلى إخلاص العبادة لله- تعالى.-أى: هذا الذي أمرتكم به من إخلاص العبادة والطاعة لي هو الطريق الواضح المستقيم، الذي يوصلكم إلى عز الدنيا، وسعادة الآخرة.

(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً) (جبلاً) الجبلة الخلقة، معناه: الخلق الكثير، ملايين من الخلق أضلهم الشيطان وأغواهم عن طريق الرحمن.

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) ألا يوجد عندكم عقل تعقلون وتعرفون أن هذا هو الحق من عند الله، تركتم هذا واتبعتم الشيطان من دون الله تبارك وتعالى.

قال تعالى:﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾
[يس: 63-64]

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) جهنم اسم من أسماء النار.

(اصْلَوْهَا الْيَوْمَ) يصلى الشيء بمعنى: يحترق فيه، فيقول: عانوا حرارتها، قاسوا من لهيبها.

في حديث النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم أنه قال عنها: **(يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)**

تخيل هذا العدد الضخم! هذه جهنم خلقها الله سبحانه وتعالى، وجعلها عذاباً لمن عصاه سبحانه، هي عظيمة، وقد وعدها الله عز وجل أن يملأها ممن كفر وممن عصاه سبحانه وتعالى، ولا تشبع أبداً، كلما ألقي فيها فوج تقول: هل من مزيد، حتى يسكتها الله سبحانه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قط قط)**، حينها تسكت ولا تطلب المزيد.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٦٥﴾﴾ [يس: 65]

(**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ**) والختم الوسم على الشيء بطابع ونحوه، مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء وطبعه فيه للاستيثاق، لكيلا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخله ما هو خارج عنه.

(وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وتشهد أرجلهم) تنطق الأيدي، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ، وهذا من التفنن في القرآن العظيم، لم يقل: تكلمنا أيديهم وتكلمنا أرجلهم، ولكن ذكر أن كل عضو ينطق ويتكلم، ففصل فذكر أن الأيدي تتكلم، والأرجل تشهد، كأنه أقامها مقام الشاهد؛ لأن الإنسان غالباً ما يصنع أفعاله بيده، فكأن اليد بعيدة عن الرجل، والرجل شاهدة على اليد بما فعلته، وعلى الفم بما قاله، فتقول : ضربت فلاناً، أخذت مال فلان، سفكت دم فلان، والرجل تشهد على هذا الإنسان وعلى هذه اليد بما صنعت .

(يَكْسِبُونَ) يقترفون من الإثم والفجور .

والمعنى: أنهم حضروا الموقف أمام رب العالمين، فلما سألهم أجابوا وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ، ومن حاول أن يكتم الله حديثاً أنطق عليه أعضاءه فاعترفت عليه يوم القيامة.
وجاء في صحيح مسلم من حديث أنس : **(كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب! ألم تجرني من الظلم؟)**، انظروا العبد يوم القيامة، ما زال يجادل ربه: يا رب! ألست حرمت الظلم على نفسك، وأنت أجرت من الظلم عبادك؟ **فيقول الله سبحانه: (بلى، فيقول هذا العبد: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني)** يعني: لا أريد ملائكة تشهد علي، أنا أشهد على نفسي، يظن أن ذلك ينفعه. **قال: (فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فِيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام)**، شهدت عليك أعضاؤك بما عملت في الدنيا، فيقول وهو يدعو على نفسه: **(بعداً لكُنّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل)** يعني: كان يدافع عن نفسه، عن أعضائه التي أوبقته وشهدت عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧﴾ [يس: 66-67]

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ) الطمس: إزالة الأثر، تقول: طمست الريح الأثر، بمعنى: أزالت الأثر، والمعنى: أعميناهم أو صيّرناها ممسوحة لا يرى لها شقّ .

وقد ذهب أكثر المفسّرينَ إلى أنّ المراد بالآية الحديثُ عنْ حال الكافرين في الدنيا ، ففسّروا الصراط بالطريق المعروف ، مع أنّ سِياقَ الآية في الحدِيثُ عن مشهد مِن مشاهد يوم القيامة ، بدءاً من قوله تعالى: { **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** (63) **اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** (64)

فكان الأصحّ والأرجح أن تفسّر الآية بما يعرض للكافرين من أهوال يوم القيامة ومواقفه ، فالكافر الذي عاند الحقّ في هذه الحياة ، وطمس بصيرته عن رؤية آيات الله تعالى في نفسه ، وفي الآفاق من حوله ، يعاقب يوم القيامة بأن يطمس بصره وهوَ في أشدّ الحاجة إليه ، عندما يقدّم إلى الصراط ليجتازه ، فيفاجأ بطمس بصره ، ويحاول أن يبادر قبل ذلك ، فهيهات هيهات .!

ويؤيّد ذلك عموم ما جاء في قول الله جلّ وعلا : { **ومَن أعرضَ عنْ ذِكري فإنّ لهُ مَعِيشةً ضَنكاً ، ونحشرُه يومَ القيامةِ أعمَى** }
وقد نقلَ الإمام القرطبيّ في تفسيره عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ما يؤيّد هذا القول ويعضده : يقول الإمام القرطبيّ : وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدّم ، وتأوّلها على أنّها في يوم القيامة ، وقال : إذا كان يوم القيامة ، ومدّ الصراط ، نادى منادٍ : ليقم محمّد ﷺ وأمّته ، فيقومون برّهم وفاجرهم ، يتبعونه ليجوزوا الصراط ، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجّارهم ، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتّى يجازوه .؟ ثمّ ينادي منادٍ ليقم عيسى ﷺ وأمَّته ، فيقوم فيتّبعونه برّهم وفاجرهم ، فيكون سبيلهم تلك السبيل ، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام . [35]

ويؤيّد هذه الرواية ما جاء في صحاح الأحاديث من أنّ مرور الناس على الصراط إنما هو على حسب أعمالهم ؛ فمنهم من يمرّ كالبرق الخاطف ، ومنهم كراكب الجواد السريع ، ومنهم من يحبو على الصراط حبواً ، ومنهم مخدوش مسلّم ، ومنهم من تتخطفه كلاليب جهنّم .

---

[35] انظر تفسير القرطبي 50/15

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ) والمسخ: تبديل الخلقة وتحويلها من حال إلى حال، ومن هيئة إلى هيئة.

(عَلَى مَكَانَتِهِمْ) المكانة: المكان الذي يزاولون فيه معصيتهم ويمكثون فيه، أي في مكان معاصيهم أو في منازلهم .

والمعنى: لو أردنا كنا مسخناهم قردة وخنازير، وقد فعل ذلك ببعض عباده الذين غضب عليهم، ولو شاء لفعل بهؤلاء أيضاً من كفار قريش.

(فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ) فَلم يقدروا على ذهاب أو عودة .

أى: وفي قدرتنا إذا شئنا، أن نغير صورهم الإنسانية إلى صور أخرى قبيحة، كأن نحولهم إلى قردة أو حيوانات وهم عَلى مَكانَتِهِمْ أى: وهم في مكانهم الذي يقيمون فيه فَمَا اسْتَطاعُوا بسبب هذا المسخ مُضِيًّا أى: ذهابا إلى مقاصدهم وَلا يَرْجِعُونَ أى: ولما استطاعوا- أيضا- إذا ذهبوا أن يرجعوا.

أى: في إمكاننا أن نمسخهم وهم جالسون في أماكنهم، فلا يقدرون أن يمضوا إلى الأمام، أو أن يعودوا إلى الخلف.

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديدهم على استمرارهم في كفرهم، وبيان أنهم تحت قدرة الله- تعالى- وفي قبضته، وأنه- سبحانه- قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار، ومن مسخ للصور، ومن غير ذلك مما يريده- تعالى-.

المعنى الإجمالي للآيات :

1- وإنّ أهل الجنة في ذلك اليوم مشغولون عن غيرهم بأنواع النعيم التي يتفكّهون بها ويتنعّمون ، إنّهم هم وأزواجهم يتنعمون بالجلوس على الأسرة المزيّنة ، تحت الظلال الوارفة ، ولهم في الجنة أنواع الفاكهة اللذيذة ، ولهم كلّ ما يطلبون من أنواع النعيم ، ولهم فوق ذلك نعيم آخر أكبر ، حين يكلّمهم ربّهم ، وهو الرحيم بهم ، ويسلّم عليهم ، فتحصل لهم السلامة التامّة والسعادة ، ويحظون بتكريم ما بعده من تكريم .!

2- وفي ذلك اليوم يقال للكفار : تميّزوا عن المؤمنين ، وانفصلوا عنهم ، ويقول الله لهم توبيخاً وتذكيراً : ألم أوصكم على ألسنة رسلي ألاّ تعبدوا الشيطان ولا تطيعوه ؟ إنّه لكم عدوّ ظاهر العداوة لا يريد لكم إلاّ الشقاء والوقوع فيما يغضب الله ، ولقد أمرتكم بعبادتي وحدي ، فعبادتي وطاعتي ، ومعصية الشيطان هو الدين القويم الموصل لمرضاتي وجنّتي . ولقد أضل الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن الحقّ ، أفما كان لكم ـ أيها المشركون ـ عقل ينهاكم عن اتّباعه وطاعته .؟!

3- ثمّ يقال لهم : هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على كفركم بالله تعالى وتكذيبكم لرسله ، ادخلوها اليوم وقاسوا حرّها ؛ بسبب ما كنتم عليه من الكفر والجحود .

4- وفي ذلك اليوم نطبع على أفواه المشركين فلا ينطقون ، وتكلمنا أيديهم بما بطشت به ، وتشهد أرجلهم بما سعت إليه في الدنيا ، وكسبت من الآثام ، فلا يستطيعون التنصّل من جرائمهم ، وما كانوا عليه من الظلم والفساد .

5- ولو نشاء لطمسنا على أعينهم بأن نذهب أبصارهم ، كما ختمنا على أفواههم ، فإذا بادروا إلى الصراط ليجوزوه لم يستطيعوا ، إذ كيف يتحقق لهم ذلك ، وقد طمست أبصارهم ؟! فتخطفهم كلاليب جهنّم ، ويسقطون فيها .

6- ولو شئنا لغيرنا خلقهم ، وأقعدناهم في أماكنهم ، فلم يستطيعوا المضي أمامهم ، ولا أن يرجعوا وراءهم .! أفلا يعتبرون بذلك ويتّعظون .؟!

الدروس والعبر :

1- الحساب حق وعدل ، والجزاء قائم على العدل المطلق فلا ينقص من ثواب العمل أي شيء مهما قل ، ولا يجزى الناس إلاّ بما عملوا من خير أو شرّ .

2- إن أصحاب الجنة يتنعّمُون فيها نعيماً ماديّاً ، وليس روحيّاً فقط ، فهم في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي في النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم .

3- يتنعّمُ أهل الجنة بأنواع النعيم هم وأزواجهم ، تحت ستور تظلّلهم ، وعلى الأرائك متكئون (أي السرر في الحجال ، كالناموسيات أو الكوشة التي تهيأ للعروس) .

4- ولهم في الجنّة أنواع من الفاكهة لا تعد ولا تحصى ، ولهم كلّ ما يتمنّون ويشتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ .

5- ولهم أكمل الأشياء وأعلاها الذي لا شيء فوقه وهو السلام من الله الربّ الرحيم ، إمّا بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك غاية ما يتمنّونه وما يكرمهم الله به .

6- وفي الآخرة يميّز المجرمون عن المؤمنين ، ويعزلون تحقيراً لهم ، وإعداداً لسوقهم إلى نار جهنم ، وذلك حين يؤمر بأهل الجنّة إلى الجنّة ، فيقال للمجرمين : أُخرجوا من جملتهم .

****

الفصل السادس

دلائل النبوّة ومعالم الرسالة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: 68-76]

الفصل السادس

دلائل النبوّة ومعالم الرسالة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴿٦٨﴾﴾ [يس: 68]

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ) ومن نعطيه عمراً يعيش حتى يجاوز الستين.. السبعين.. ، إذا عمرناه نكسناه، **أي** نرده إلى أرذل العمر ، فيصبح بعدَ قوّته وشبابه ضعيفاً هرماً .

والإنسان في حياته يمشي في منحنى سنه وهو صغير من الصفر، ثم يستمر في الزيادة إلى أن يعلو إلى أقصى قوته وشبابه وصحته، ومن ثم يأتي منحنى النزول بعد ذلك حتى يصل إلى الصفر، ويدخل إلى قبره.

فالإنسان كلما ازداد عمره في طاعة الله كلما كان خيراً له، فيستغل الإنسان حياته وصحته وشبابه في أن يعبد الله سبحانه.

وإذا اكتمل الشباب واكتمل للإنسان القوة فما بعد الكمال إلا النقصان، فبعدما كان يقدر على أن يصلي قائماً يصلي قاعداً، وبعدما كان يصلي قاعداً يصلي وهو مضطجع .

لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر، ويقول: **(أعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر)**

وفي هذه الآية الاستدلال على أن قدرة الله تعالى لا يستصعب عليها طمس أعينهم ولا مسخهم كما غير خلقة المعمرين من قوة إلى ضعف، كأنه قيل: لو نشأ لطمسنا أعينهم ومسخناهم، لأنا قادرون على قلب الأحوال، ألا يرون كيف نقلب خلق الإنسان فنجعله على غير ما خلقناه أولا.

وكذلك الاستدلال على قدرة الله على البعث : أي أن الذي قدر على تغيير خلقهم من شباب إلى هرم قادر على أن يبعثهم بعد الموت.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝٦٩ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس: 69-70]

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ) وما جعلنَا محمّداً ﷺ قادراً على قول الشعر أو نظمه .

يخبر سبحانه وتعالى عن نبيه صلوات الله وسلامه عليه أنه سبحانه ما علمه الشعر، وما من شيء تعلمه النبي صلى الله عليه وسلم إلا وربه الذي يعلمه إياه سبحانه، فعلمه من الغيب ما شاء سبحانه وتعالى، وأخفى عنه من الغيوب ما شاء، فما من شيء تعلمه إلا من فضله سبحانه، ومنعه عن أشياء لا يتعلمها صلى الله عليه وسلم، ومنها: الكتابة والقراءة، وهذه للنبي صلى الله عليه وسلم معجزة، أنه نبي أمي صلوات الله وسلامه عليه، هكذا وصفه ربه: **(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلَ)** [الأعراف:157].

فهو أمي صلوات الله وسلامه عليه، أي: لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الله يحفظه ويعلمه ما يشاء، فصفة الأمية في النبي صلى الله عليه وسلم تعتبر من معجزاته، من أنه تعلم هذا العلم كله وهو لا يقرأ ولا يكتب صلوات الله وسلامه عليه.

(وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) ليس النبي صلى الله عليه وسلم بمكانة من يتعلم الشعر، وقد ينبغي لغيره أن يتعلمه، فيتعلم العلماء من الشعر ويدرسونه ويقولونه ويتكلمون به، أما النبي صلى الله عليه وسلم فهو ممنوع من ذلك، وانظر مثلاً في قول طرفة بن العبد قاله النبي: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزود بالأخبار.

وهذا بيت مكسور، لكن انظر إلى صاحب البيت كيف قاله!

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فلما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ما اهتم أن يأتي به موزوناً.

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) تذكير وموعظة من الله تعالى لعباده ، وفيه ذكر للعرب وشرف لهم بأن ينزل هذا القرآن على نبيهم صلى الله عليه وسلم.

(وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) كتاب مبيّن للأحكام والشرائع التي يكلّف الله بها عباده.

(**لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا**) والإنذار: الإعلام بأمر يجب التوقي منه، أي لينذر حيّ القلب مستنير البصيرة ، يعقل الحقّ ويستجيب له.

والمقصود منه: التعريض بالمعرضين عن دلائل القرآن بأنهم كالأموات لا انتفاع لهم بعقولهم كقوله تعالى: **(إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) [النمل: 80] .**

(وَيَحِقَّ) يجب العَذاب ويثبت، أي: لتكون النتيجة والعاقبة إحقاق ما قاله الله سبحانه على الكافرين أنه أقسم: **(لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)** [هود:119]

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [يس: 71-73]

(أولم يروا) أولم يعتقدوا فيما يرونه من آيات الله سبحانه التي ينظرون إليها، ويعتبروا بذلك ويتفكروا؟ هلا اعتبروا بذلك؟!

(أنا خلقنا) والله سبحانه خالق كل شيء بـ(كن) فيكون ما شاءه الله سبحانه تبارك وتعالى.

(مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) أي: أوجدنا، وخلقنا هذه الأشياء التي يرونها أمامهم.

(أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) والأنعام جمع نعم، وتطلق على ثلاثة أشياء: على الإبل والبقر والغنم، وخصّها بالذكر لما فيها من بديع الفطرة وعظيم المنافع.

(فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) يملكون هذه الأشياء، وإن كان الملك الحقيقي هو لله سبحانه وتعالى، ولكن جعلهم يملكونها ويتوارثونها، يشتريها بعضهم من بعض فيملك في هذه الدنيا.

(وذللناها لهم فمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ) والتذليل: جعل الشيء ذليلا، والذليل ضد العزيز وهو الذي لا يدفع عن نفسه ما يكرهه.

ومعنى تذليل الأنعام أن الله سخرها للإنسان، فعلى الرغم من قوتها كالجمل وغيره إلا أنها إذا زجرها الإنسان أو أمرها ذلت له وانطاعت.

ولهذا نجد الصبي الصغير يقود هذا الجمل الكبير، وقد ذلل له ويقوده حيث شاء، بل إن الإنسان يقود الجمل الكبير الجسم إلى مكان نحره وينقاد معه.

والرَكوب (بفتح الراء)غير الرُكوب (بضم الراء)، الرُكوب الفعل نفسه، والرَكوب: الدابة التي تركبها وهي فَعول بمعنى مفعول، أي: مركوبهم، فمنها ما يرَكبونه.

(وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ) من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فضلاً عن لُحومها وألبانها فينتفعون بما شاء الله عز وجل منها.

(أَفَلا يَشْكُرُونَ) هلا شكروا الله تبارك وتعالى على هذه النعم العظيمة التي سخرها لهم وذللها لهم؟

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس: 74-75]

(واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً) فعبدوا غير الله سبحانه، ولماذا عبدوا غير الله؟

(لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ) يظنون أنهم ينتصرون بهؤلاء، فإذا خرجوا لقتال ذهبوا إلى أصنامهم يطلبون منها أن تنصرهم، وهم يعرفون أنهم هم الذين صنعوا هذه الأصنام.

(لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ) أين هذه الأشياء التي تنصرهم.

(وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ) هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولكن هؤلاء العابدين ينتصرون للأصنام ويكونون جندًا لها.

فهؤلاء العابدون يعبدون ما لا ينفعهم، والغالب أن الإنسان العاقل إنما ينتصر لمن ينفعه، وينتصر له، وأما من لا ينتصر له ولا ينفعه بشيء لا يمكن أن ينتصر له.

قال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾ [يس: 76]

(فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ) أي لا يوقعك في الحزن، والحزن هو الندم والهم والتأسف لما مضى، والخوف هو الهم والترقب لما يستقبل.

يطمئن نبيه صلى الله عليه وسلم، ألا تحزن على هؤلاء: أي: قولهم إنك ساحر وكاذب وكاهن، فلا تحزن من أقوالهم فقد قيل هذا القول عن الأنبياء من قبلك.

ويجب هنا الوقوف على قوله: **{قَوْلُهُمْ}** لأننا في حال الوصل يوهم أن تكون جملة **{إِنَّا نَعْلَمُ}** من قولهم، وليست كذلك بل هي جملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وحالهم أنهم مهددون بعلم الله عز وجل لما يسرون وما يعلنون، ما يسرونه فيما بينهم، وما يعلنونه للناس، ما يسرونه في أنفسهم، وما يبدونه لغيرهم.

(إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) يعني: هم وإن أعلنوا لك أنك كاذب فنحن نعلم أنهم في سرهم يعتقدون أنك صادق، ولكن الغيرة والحسد دفعهم إلى هذا الشيء.

المعنى الإجمالي للآيات :

1- ومن نطل عمره حتّى يهرم نردّه إلى حالة ضعف العقل وضعف الجسد التي ابتدأت بها حياته ، أفلا يعقلون أنّ من فعل بهم مثل هذا – سبحانه- قادر على بعثهم وحسابهم .؟!

2- وما علّمْنا محمّداً ﷺ قولَ الشعر ، وما ينبغي له أن يكون شاعراً ومن هذا القبيل ما أثر من قول الإمام الشافعيّ رحمه الله :

ولولا الشعرُ بالعلماءِ يُزري لكنتُ اليوم أشعرَ مِن لبيدِ

3- وأمّا هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ فهو وحيٌ منزّل من السماء ، وذكر لأولي الألباب ، وهو قرآن مبين في أحكامه وحكمه ومواعظه ؛ أنزله الله لينذر من كان حيّ القلب مستنير البصيرة ، ينتفع بالموعظة والذكرى ، ويحقّ العذاب على الكافرين بالله ؛ فتقوم عليهم حجة الله البالغة بالقرآن ، فهو كلّه حكمٌ وعقائد وشرائع .

4- فإذا انتفت الريبة بهذا القرآن ، وبمن جاء به من عند الله ، فلم يبق للكافرين المكذّبين إلاّ العناد والمكابرة ، وهو ما يوجب عليهم العذاب العاجل بجهاد المؤمنين لهم بأنواع الجهاد ، والعقاب الأخرويّ بعذاب الجحيم .

5- ومن أدلة وجود الله ووحدانيته : خلق الإنسان والحيوان والنبات ، فقد خلق الله سبحانه كل ذلك ، وأبدعه من غير واسطة ولا شركة .

6- ومن فضله ونعمته على الناس تذليل الأنعام لهم ، حتّى إنّ الصبيّ الصغير يقود الجمل العظيم ، ويضربه ويوجهه كيف يشاء ، وهو له طائع ، ومن نعمته تسخيرها لمنافعهم في الركوب ، والأكل من لحمها ، والشرب من حليبها وألبانها ، وصنع الجبن والسمن منها ، وكلّ ذلك مما يوجب شكر الخالق المنعم على نعمه ، بعبادته وطاعته ، وإخلاص العمل له .

7- وعلى الرغم من وجود الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى ووحدانيّته ، فقد اتخذ الكفار من دون الله آلهة ، لا قدرة لها على فعل ، طمعاً في نصرتها ، وأملاً في مساعدتها لهم إن وقعوا في شدّة ، أو نزل بهم عذاب .

8- ثمّ سلّى الله عز وجل نبيّه محمداً ﷺ فقال له : لا يحزنك قولهم : ساحر ، شاعر ، كاهن ؛ فكذّبهم الله تعالى ، ونفى ذلك عن رسوله ﷺ ، وبيّن سبحانه أنّه مطلّع عليم بما يُسرّ الكافرون ، أو يظهرون من القول والعمل ، فيجازيهم بذلك يوم القيامة .

الدروس والعبر :

1- ليس القرآن شعراً ، وليس محمد ﷺ شاعراً ، فلا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان ﷺ إذا حاول التمثّل ببيت من الشعر كُسِرَ وزنه على لسانه ، وذلك من أعلام نبوته ﷺ .

2- إنّ القرآن الذي يتلوه النبي ﷺ على الناس أنزله الله تعالى حجّة على العالمين ، فيه الذكر والمواعظ ، والآداب والأخلاق ، والحكم والأحكام ، والتشريع المحقق لسعادة البشر .

3- سخر الله الكون للإنسان وهيأ له معاشه في هذه الدنيا فلا يليق به أن يتغافل عن نعم الله فيشكر غيره ويكفر بالله .

****

الفصل السابع

حجج بيّنات في وجوه المكذّبين

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 77-83]

الفصل السابع

حجج بيّنات في وجوه المكذّبين

قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴿٧٧﴾﴾ [يس: 77]

سبب نزول الآيات :

جاء في أسباب النزول أنّ أبيّ بن خلف لعنه الله جاء إلى النبيّ ﷺ ، وفي يده عظم رميم ، وهو يفتّه في الهواء ويقول : يا محمّد ! أتزعم أنّ الله يبعث هذا ؟ فقال له رسول الله ﷺ : نعم ! يميتك الله تعالى ، ثمّ يبعثك ، ثمّ يحشرك إلى النار " ، ثمّ نزلت هذه الآيات من آخر سورة يس { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ .. إلى آخر السورة .(36)

(أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ) يرى بمعنى يعلم، والمعنى: أو لم يعلم، والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبيخ.

(أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ) النطفة: نطف الماء بمعنى: سال وخرج صافياً قل أو كثر، وقد تطلق النطفة أيضاً على الماء القليل، والمقصود به هنا المني.

(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ) (خصيم): مبالغ في الخصومة ، وشديد الجدال بالباطل .

(مبين): مفصح عما يريد أن يقوله، مجاهر في إنكاره للحقّ ، متجرّئ على ربّه .

قال الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 78-79]

(نَسِيَ خَلْقَهُ) نسي كيف كان ابتداء خلقه ، فجاء بعظمة رأس إنسان يفتها في يده ويقول: هذا شيء قد أرم فكيف يعاد؟! ونسي كيف خلقناه.

---

(36) تفسير الطبري (جامع البيان، 22/85–86) بإسناد عن مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم، والقصة نُسبت إلى أُبيّ بن خلف، وبعض الروايات ذكرت الْعَاصِ بْن وَائِل، والراجح أن كلاهما قد صدر عنه مثل هذا الفعل. والرواية مرسلة (من رواية التابعين مثل مجاهد وقتادة والسدي)، لكنها تتعدد وتتقوى بعضها ببعض، ويشهد لها ظاهر الآيات، فهي من الروايات المقبولة في التفسير وأسباب النزول.

(**قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**) أي: بالية، فالإنسان إذا مات ذهب لحمه، وعصبه، وصارت عظامه تتفتت لقدمها، فهي إذاً رميم، والعظام الرميم هي أبعد شيء عن الحياة؛ لأنها تشبه التراب فهي أبعد شيء عن الحياة فكيف تحيا هذه العظام؟ هذا وجه استغراب هذا الرجل المنكر.

والمعنى: أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل، لم يكتف بذلك، بل ضرب لنا مثلا هو في غاية الغرابة، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى، وعلى بعثهم يوم القيامة، فقال: - دون أن يفطن إلى أصل خلقته- من يحيى العظام وهي رميم، أى: وهي بالية أشد البلى.

(**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**) قل لهذا الإنسان: الذي خلقها أول مرة أليس قادراً على إعادتها ؟!

(**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**) فهو أعلم بهم، هو بدأهم ويميتهم ويعيدهم مرة ثانية، وهو على كل شيء قدير.

والمعنى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الجاهلين المنكرين: الله تعالى سيحيى هذه الأجسام والأجساد البالية، وهو الذي أوجدها من العدم ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه، وهو- سبحانه- بكل شيء في هذا الوجود عليم علما تاما، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الله سبحانه:﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴿٨٠﴾﴾

[يس: 80]

(**جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا**)هو الشجر الندىّ الرطب ، كشجرتي المرخ والعَفَار[37] ، تخرج منهما النار ، يأخذ الغصن الطري من الشجرة، ثم يأخذ غصناً من الأخرى فيضع واحداً فوق الآخر، ثم يضرب هذا على هذا فتخرج له ناراً، فيقول: ألا تعجبون من هذه الأشياء التي خلقها الله عز وجل؟! هذا غصن طري في يدك بداخله ماء تضرب به على الغصن الآخر فتخرج لك منه نار؟! ألا تعجب من قدرة الله سبحانه.

فجعل لهم آية، فقال: ألا تتعجبون عندما ترون الشيء ونقيضه؟! فهذه الأشجار التي بداخلها الماء، فإنه يطلع من الجذوع إلى الساق فيروي أوراق النبات وثماره؛ فالشجرة

---

[37] شجر المرخ (بفتح الميم وسكون الراء) وشجر العفار (بفتح العين المهملة وفتح الفاء)

أكثر تكوينها الماء، فهذا الشجر المكون من الماء إذا أحرق يحترق، وأعجب منه أنه هو يأتي بالنار.

فإذا كان الله عز وجل يولد هذا الشيء الذي بينه وبين المولد منه من التنافر ما هو ظاهر، فهو قادر على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن كونه يخلق الضد من الضد، أبلغ في القدرة من كونه يخلق الشيء من لا ضد، وهذا أمر ظاهر.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 81-82]

هذا سؤال والجواب عنه معروف: بلى إنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير! أجاب الله تعالى نفسه بنفسه، لأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، كما قال الله تعالى: **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}** [غافر: 57][38]

وهذا أمر معلوم بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يساوون كوكبًا من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله عز وجل، والسماوات العظيمة

فالذي خلق السموات والأرض أفلا يكون قادرًا على خلق الناس؛ الجواب: بلى وهو الله خالق كل شيء إِنَّمَا أَمْرُهُ في غاية السهولة، إذا قضى أمراً أو أراد تكوين شيء، أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فيكون الشيء الذي يريده الله تبارك وتعالى.

---

[38] وأمّا العلم الحديث المعاصر ، باكتشافاته المتجدّدة فهو في كلّ يوم يكتشف الجديد ، ويقدّم البرهان تلو البرهان على ما قرّره القرآن قبل أربعة عشر قرناً .. إنّه يقرّر أنّ " السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خلقٌ عجيبٌ هائل .. هذه الأرض التي نعيش عليها ، ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع ثمّ لا نبلغ نحن شيئاً من حجمها ، ولا شيئاً من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتّى اليوم إلاّ القليل .. هذه الأرض كلّها تابع صغير من توابع الشمس ، التي تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها .. وهذه الشمس واحدة من مئة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا ، والتي تؤلف دنيانا القريبة ! وفي الكون مجرات أخرى كثيرة ؛عدّ الفلكيون حتّى اليوم منها مئة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة ، وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد ، وبين مجرّتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مئة ألف سنة ضوئية (والسنة الضوئية تقدّر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال !) وهناك كتل ضخمة من السدم الذي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس ، وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة ! تلك الشموس التي لا يحصيها العدّ لكلّ منها فلك تجري فيه ، ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس .. وكلها تجري وتدور في دقّة وفي دأب ، لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلاّ تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الوسيع .. هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة . لا نحاول تصويره ولا تصوّره .. فذلك شيء يدير الرؤوس !

في أي حال يقول الله تبارك وتعالى للشيء (كن) فيكون؟ في حال وجوده ، أم في حال عدمه ؟

تسمية هذا المعدوم قبل أن يخلق " شيئا " لأنه موجود في علم الله تعالى ، قد علمه الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقه ، بل وكتبه أيضا في كتابه السابق ؛ فهو شيء باعتبار العلم به ، لا لأن له وجودا متميزا خارج الأذهان ، فإن هذا إنما يكون له بعد أن يخلق ، لا قبل أن يوجد بالفعل ، أو لأنه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع، كتسمية العصير خمرا في قوله : (إني أراني أعصر خمرا) ، نظرا إلى ما يؤول إليه في ثاني حال ..

والخطاب الذي وجه إليه (**كن**) ليس خطابا تكليفيا ، ولا أمرا له بفعل شيء ، وإنما هو خطاب "كوني" ، "قدري" ، وهذا الخطاب : هو دليل قدرة الله تعالى التامة ، وإرادته ، ومظهر ذلك.

قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 83]

(فسبحان) تنزيهاً لله تبارك وتعالى وتعظيماً وتقديساً لله الذي بيده الملكوت.

(والملكوت) على وزن فعلوت صيغة مبالغة من الملك يعني: له الملك التامّ لكلّ شيء ، وهو المتصرّف فيه وحده ، والمَلَكُوتُ مبالغة في المِلك .

فائدة لغوية:

مادة (م ل ك) تُنطق فيها الميم على وجوه ثلاثة: الفتح والضم والكسر:

- ملك بالكسر: هو كل ما في حوزتك وتتصرَّف فيه.
- وبالضم: هو التصرّف في ملك مَنْ يملك، وهو المعروف في نظام المملكة.
- وبالفتح الإرادة مثل قوله تعالى: (مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) [طه: 87] يعني: بغير إرادتنا.

أما اللام في ملك فتأتي بالفتح والكسر:

- بالكسر مِلك، وهو مَنْ يُملَّك في غيره في تصرفه وفي إرادته.

- وبالفتح ملك وهو المخلوق من الملائكة.

(وإليه تُرجعون) المرجع إلى الله سبحانه للجزاء والحساب، للجنة أو للنار.

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: (قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم قال في سجوده مثل ذلك) رواه أبو داوود.

المعنى الإجمالي للآيات :

1- عجباً لأمر الإنسان الجاحد المنكر للبعث ، أو لم ير كيف خلقه الله من نطفةِ ماءٍ، ثم يخاصم ربّه ، ويجادل في خصومته ويتمادى ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً .

2- لقد نسي هذا الإنسان الضعيف المخلوق أن الله أنشأه من نطفة ، ثم جعله إنساناً حيّاً سويّاً ، فهذا دليل حاضر من نفسه على إمكان البعث ، وقد احتجّ الله عز وجل على منكري البعث بالنشأة الأولى ، فكيف ينكر الإنسان ، ويقول بعد ذلك : من يحيي هذه العظام البالية ؟! والجواب : أن النشأة الثانية مثل النشأة الأولى ، فمن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ولا ريب .

3- ومن أدلة وحدانيته تعالى وكمال قدرته على إحياء الموتى : ما يشاهده الناس من إخراج المحروق اليابس من العود النديّ الطريّ ، فإن الشجر الأخضر من الماء ، والماء بارد رطب ضدّ النار ، وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ، فدلّ ذلك على أنّه تعالى هو القادر على إخراج الضدّ من الضدّ ، وهو على كل شيء قدير ، فأيّ عجب بعد ذلك من خلق العباد مرّة أخرى .؟!

4- إنّ الله الذي خلق السموات والأرض التي هي أعظم من خلق الناس قادر على أن يبعث الناس من قبورهم ، ويحييهم مرة أخرى للحساب والجزاء ، فهو سبحانه لا حدّ لقدرته ، ولا يعجزه شيء .. فهُو سبحانه الخلاّقُ : الكثيرُ الخلق ، والعظيم فيما خلق ، وهو العليم بما خلق : بدقائق أحواله وعظيمها ، وخفيّها وجليّها ، لا يخفى عليه شيء من أمرها ، لا يغفل عن خلقه لحظة ، ولا تأخذه سنة ولا نوم .

5- والاستدلال على بعث الناس من قبورهم ، وحشرهم إلى الحساب بين يدي ربّهم بخلق السموات والأرض هو من نوع قياس الأولى ، فالقرآن الكريم يقرّر ، ثمّ من بعده العلم المعاصر يقرّ ويعترف أنّ خلق السموات والأرض أعظم وأجلّ من خلق هذا الإنسان ، على عظمة ما في خلقه ، ودقّة ما في خلقه ، وحكمة ما في خلق كلّ عضو من أعضائه ، أو خليّة من خلاياه .

6- إنّ الله تعالى إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى جهد ، وإنما أمره نافذ ، وإرادته لا يعجزها شيء ، فتنزّه الله تعالى عمّا لا يليق به سبحانه ، مالك الملك ، لا يندّ عن ملكه وقهره شيء ، بيده مفاتيح كل شيء ، ومردّ الناس كلّهم إليه ، ومصيرهم بعد مماتهم للبعث والحشر ، ليحاسب كلّ امرئ على عمل من خير أو شرّ .

الدروس والعبر :

1- لا حجّة للجاحد في إنكار البعث بعد الموت ، والحشر والجزاء إلاّ العنادُ والمكابرة ، أو ضعفُ العقلِ وقلّةُ التفكير .

2- حجج الحقّ كثيرة ظاهرة ، مبثوثة في كلّ شيء من هذا الوجود ، وما على العاقل إلاّ أن يعمل فكره ، ويتجرّد عن الأهواء التي تصدّ عن اتّباع الحقّ ، ليرى أمامه شواهد الحقّ أكثر من أن تحصى أو تعدّ .

3- مع أنّ من صفات الكافرين العناد للحقّ ، والتكبر عن قبوله ، والجدل وكثرة المماراة ، فإنّ على الدعاة إلى الله تعالى إقامة الحجّة عليهم ، ببيان الحقّ والتدليل على حقائقه بأنوَاع الحجج والبراهين

4- قدرة الله تعالى التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء .

5- إنّ تسبيح الله تعالى وتنزيهه هو روح التوحيد لله تعالى والإقرار بأسمائه وصفاته .

****

تم تفسير سورة يس بحمد الله

فهرس الموضوعات

الموضوع	ص
المقدمة	4
الفصل التمهيدي	6
الفصل الأول/ حقائق الإيمان في مواجهة عتوّ الطغيان [يس: 1-12]	14
الفصل الثاني/ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ [يس: 13-32]	32
الفصل الثالث/ من آيات القدرة والإبداع [يس: 33-44]	48
الفصل الرابع/حوار مع الكافرين والمصير المنتظر [يس: 45-54]	63
الفصل الخامس/ حال أهل الجنة وحال أهل النار [يس: 55-67]	75
الفصل السادس/ دلائل النبوّة ومعالم الرسالة [يس: 68-76]	85
الفصل السابع/ حجج بيّنات في وجوه المكذّبين [يس: 77-83]	92